العيون في الشعر العربي

العيون في الشعر العربي

تأليف: محمد جميل الحطّاب

الطبعة الأولى عام ١٩٩٩ م

الطبعة الثانية عام ٢٠٠٠م

الطبعة الثالثة عام ٢٠٠٣م

عدد النسخ ١٠٠٠

طبعة منقّحة ومزيّدة

طباعة وتنفيذ : مؤسسة علاء الدين للطباعة والتوزيع

تنضيد وإخراج : فادي الكاتب

تصميم الغلاف : فيصل حفيان

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

مؤسسة علاء الدين للطباعة والتوزيع

سورية، دمشق، ص،ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١ ـ فاكس: ٥٦١٣٢٤١ خليوي ٠٩٣٣٣٢٧٩٧

محمد جميل الحطاب

العيـــــون

في الشعر العربي

إهـــداء

إلى العيون المحبّة الجميلة

التي كنت بنورها أكثر رؤية

وبوحيهـــا أبعــــد إلهامــــاً

تقديـــم

د. علي عقلة عرسان

ما الذي يتبادر إلى الذهن أولاً عندما تُذكر العين؟ أهي الرؤية بنعمها وصفاتها ومواصفاتها ووظائفها وما ينتج عن ذلك كله من خير وشر؟!

أم الجمال الخاص، والعام بمقاييسه ومقوماته وقيمه، وما تضيفه البصيرة إلى البصر وما يحمله البصر من البصيرة، عندما تكون العين لسان القلب ونافذة الروح أو منفذاً لها، تحمل مكنون القلب الذي يطفر مع أشعتها ويستشف بواسطتها ما فيه، وتسل ما في النفس إن خيراً وإن شراً، إن ضعفاً وإن قوة؟! وما الذي في هذه الحاسة مما يبقى بحكم فيزياء الجسد وما الذي يصبح منها جزءاً من كيمياء الروح لا يتحكم به الجسد؟! أسئلة في سؤال طرحته على نفسي عندما تناولت بيدي مخطوط هذا الكتاب قبل أن أقرأ فيه حرفاً. وعندما انتهيت من قراءته لم يبق في نفسي ظلال لسؤال الأسئلة؛ فقد طاف المؤلف بي في جولة واسعة امتدت من عرض أفكار لفلاسفة علم الجمال فيما يتعلق بالجميل وصفاته والجمال ومقوماته، وما يتصل من ذلك بالحكم عليه وبتذوقه، إلى ما يثير في النفس كوامن الشوق عندما يعرض عليها منخول الشعر، فيثير فيها بألوان من الانفعال والصبو والصبا، مما لا يمكن مجاوزته مع بقاء التوازن والاتزان في مواقعهما المعهودة.

في هذا الكتاب (العيون في الشعر العربي) للأستاذ محمد جميل الحطاب استعراض لما يتصل بالعيون في نسقين عامين:

نسق الجميل خلقاً وشكلاً وتشكلاً مادياً مما تتوافر فيه أعمدة الجمال وفروعه وتفاصيله وما يضاف إلى ذلك من ملح الجمال، يزكو به ويشتد وقعه في النفس، من مشتقات الروح والطبع والتطبُّع، تلك التي تضفي على الشكل الجميل روحاً يبقى من دونه تمثالاً حجرياً جميلاً، من حلاوة وملاحة وحيوية تبعث الجمال إعصاراً يزوبع الأعماق، ويعوِّم كل ما فيها قبل أن يستقر بها على صيغة ما من الشجو والشدو والاستساغة والتسويغ القبول والرفض. ونسق الجميل إبداعاً واتساقاً وقيمة معنوية وروحاً مبثوثة في صور الإبداع الفني والأدبي والفكري، مما يجعل الوعي المعرفي في نفسٍ يعيد تكوين المعطيات في صور جمالية مستساغة، أو يعيد النظر بمقاييس الجمال ومعاييره على نحو يسمح بإعادة نظر بما استقر عليه الذوق من حال مع الجمال ومعاييره وآثاره وتأثيره.

وما استعرضه المؤلف بتركيز هو مما يندرج في النسق الثاني، وما جاء في هذا النسق لا تقف في وجهه حدود، وربما كان من طبيعة الإبداع أنه يتجاوز المألوف والمحدَّد والمقيَّد، ويسبح في بحر بلا ضفاف، ويغوص في أعماق، ليخرج بدرر قد لا تخطر على بال؛ ولذا فإن ما جاء في هذا النسق الذي يشكِّل قوام الكتاب غني ومفيد وجذَّاب، ففضلاً عن جنيه لأجود ثمار الإبداع وأشهاها من مظانِّها البعيدة عن متناول من لا يبذل جهداً متميِّزاً في البحث، فإنه لم يدع حديقة من حدائق شعر العرب: قديمه وحديثه إلاّ وقطف منها ثمرة وحمل منها غصناً؛ ولكنَّ ما علق ببرده وسلاله من ورد الحدائق وعطرها يغري بتلفُّت القلب من بعد شم أو نظر؛ لأن ما حمله من فاغم العطر وشهي الثمر ومترف الورد لا يترك النفس من دون أن يغيرها باتباعه، ولا يترك الذاكرة التي يطرق بابها من دون أن يفتح نوافذ الماضي لها ويستثير مكنوناته. فالشعر الذي قدم سحر العيون وتاريخ العشق وارتعاش المشاعر،

وأشار إلى الجمال باجتهاد ، من خلال قطوف الإبداع جاء مؤكداً نجاح البحث ودالاً على ذوق وتتبع وبذل جهدٍ لا يستعان به؛ وهذا يستحق ذكراً وتقديراً.

ولم يبخل الباحث بجهد في تقصي المعرفة حول مواضيع تتصل بالبصر أو البصيرة لاستكمال بحثه، كما أنَّهُ عرج على أبواب أخرى في مجال المعرفة المتصل بالعين لغة ومدلولاً ودقة وصف وهوامش دلالية، تعطي لما قد يظن أنه مترادفات حق الحضور عند الاستخدام العلمي الدقيق للكلمات، حق الحضور في لغة ومعرفة من يريد أن يتعامل مع اللغة بعلم ودقة معرفة. ومما أشار إليه أبواب تتصل بما قيل إنه فعل العين من نظرات تحمل شراً كالحسد القتَّال والنظرة التي تئد الفؤاد في الرماد.

إنه كتاب يستحق القراءة، وجهد باحث يستحق الاهتمام، وموضوع يستحق الاستكمال، إذ لا يبلغ الكمال إلا من هو الكمال بعينه؛ فتحية للباحث مع أطيب التمنيات.

الدكتور علي عقلة عرسان

استهلال

العين مرآة النفس، ومفتاح شخصية الإنسان، ومجتمع قواه، ومعانيه المختلفة. فيها يتجلّى الحب، والبغض، والعداوة والصداقة، والرحمة، والقسوة، والذكاء والغباوة، والقوة، والضعف، والحزن، والسرور، والصحة والمرض، والأمر والنهي، والهدوء والقلق. العين ترجمان الضمير، كوة على المدى، باب إلى التعرف، مصدر للجمال.

وجد فيها الملهمون عالم أسرار، وجمالات، واستيحاء، وقابل بها المحبّون من أحبُّوا بقولهم: ((أنت عيني))، وأقسم بها الواثقون: ((وحياة عينيك)) وقرنها المغنّون بالليل فأكثروا من ترديد ((يا عيني يا ليل))[1].

العين والقلب جناحان للحياة. هذه ترى الوجود على سطحه، وذلك يرى الكون في أبعاده وأعماقه، ولذلك سميِّت عين الوجه باصرة، وسمّيت عين القلب بصيرة. العين أمُّ الحواس لا تقوَّم المقدّرات إلاّ بعد أن تمرّ على ميزانها أولاً.

اللّه عرف بالعين في تجلّيه فقيل في حقّه، حضور، شهود، تجلّ.

شكّ اليونان ثمّ آمنوا بآلهة رأوها، وحاز بنو القدس، واستلانوا لإله تجسّد في طفل من الناصرة، ثمّ رآه القديس توما فكانت الرؤيا إيماناً، ونفى عنه الإسلام الصلب فمثّله لعين العقل مرتفعاً إلى اللّه.

حتى سيّدنا موسى كلّم اللّه عزَ وجل فصاح (رب أرني أنظر إليك) فالعلم لا يصير علماً إلا إذا أقرَّتْه العين.

العين تتناول الشكل، الجو، الوضع، وما يوحي به كلّ ذلك. فهي صورة عن المطلق الذي يحتضن الكون بعين رعايته مثلما هي باب كلّ واقعي مرئي.

---

(١) العين في الشعر العربي. د. علي شلق الصفحات (٥-٨).

العين أداة البصر، وأرقى الحواس الخمس. وهي مع ملحقاتها الحاجب والجفون، والجهاز الدمعي أغلى شيء يملكه الإنسان في دنياه، لأنها الصلة بينه وبين عالم الضياء والنور. هي وعاء سحري رائع تنطوي فيه صورة الأرض والسماء. لحاظها سهام تصيب جوارح، وتذكي قرائح. هي ينبوع الوعي والجمال يعجب الشاعر بظاهرها وتفتنه لحظاتها وغمزاتها، ويتخيّل ما في أعماقها من أسرار حسب إحساساته ووجدانه، ويصفها بمقدار ما في شاعريته من ضعف أو قوة. هي أجمل قطعة فنية وصفها الله في خلقه وجعلها فتنة للناس ((وزوّجناهم بحور عين)).

ولقد كان الشعراء العرب يبدعون في ابتكار المعاني، وصياغة الألفاظ، ويقدِّمون لأجيالهم وللأجيال اللاحقة تراثاً رائعاً في وصف العيون.

يثيرون المشاعر، والأحاسيس الحلوة؛ فيرى المرء العيون بعين الخيال تسمو، وتتعالى بالجمال. ومن الحقائق المعروفة أنَّ تذوُّقنا للعمل الفني يعتمد أساساً على حاسة البصر التي يمكن أن تثير حواس أخرى كالسمع والشم والذوق..

وكما يذهب بعض الشعراء ـ مثل رامبو ـ إلى أنَّ للكلمات كيمياء خاصة بها، وأن الكلمة يمكن أن توحي بالصورة والإيقاع، والملمس والطعم، واللون، والرائحة.

وكذلك يرى بعض المصورين أننا حين تمسح أعيننا صورة ما لا نرى ألواناً وخطوطاً فقط؛ بل نشم رائحة، ونسمع أصواتاً تتفاعل في بوتقة الخلق لتصبح طاقة من الانفعال الذي يحدّد لنا بدوره إيقاعاً، ونغماً نتبعه بأعيننا على السطح المرسوم.

وقد كتب المؤرخون عن عيون الملكة زنوبيا فقالوا: إنّها أسهمت في إقامة علاقات خاصة بين الصحراء والقمر.

من أجل هذا كلِّه كان الدافع إلى كتابة هذا البحث، والغوص في كنوز التراث العربي على فرائد من الأدب الخالص في وصف العيون، وأفعالها، وتأثيراتها، وإيحاءاتها. فتجمّع لديَّ شعر كثير رتَّبته، وعرضته في هذه الدراسة الانطباعية

التأثرية التي تعتمد على التأثر الذاتي، والتذوُّق الفني والإطلاع الواسع على مأثور الأدب، والبحث عن القيم الشعورية والتعبيرية للعمل الفني.

وقد قسَّمت الكتاب إلى عدة فصول. حاولت فيها أولاً أن أعرض باختصار آراء الفلاسفة عبر العصور، في الجمال وفلسفته والفرق بين الجميل والحسن ومفهوم الجميل في كتب اللغة العربية.

وانتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن ثقافة العين، وأنواع النظر. ومحاسن العين، وأوصافها، وما قاله الشعراء فيها منذ العصر الجاهلي وحتى العصر الحديث دون مراعاة للتسلسل الزمني بشكل دقيق. كما تحدّثت عن معايب العين وسلبياتها.

وفي نهاية البحث قمت بجولة فنية في آفاق العين الواسعة متابعاً ظاهرة اهتمام الشعراء العرب بالعيون وتنويعاتهم الجميلة في وصف أفعالها وتأثيراتها لأصل إلى نتيجة توضِّح خصائص الذوق الجمالي عند العرب، وتطوُّره عبر العصور استجابة لحاجات جمالية ولَّدتها أنماط المعيشة وتغيرات الظروف الاجتماعية والثقافية والاقتصادية.

وإذا كانت هذه الدراسة محاولة لفهم تجلّيات الشعراء المتنوعة جداً فلا أدَّعي أنني بلغت بها الغاية المرجوة، فربما عرفت شيئاً وغابت عني أشياء. وجلُّ ما أرجوه أن تكون وسيلة يستطيع بها الراغبون في البحث أن يركِّزوا على هذه الظاهرة ويغنوها بمزيد من التقصّي والتحليل.

والله ولي التوفيق

المؤلف

اللاذقية في ١٩٩٩/٢/٢

الفصــل الأول:

- مدخل إلى معرفة الجميل
- الجميل في كتب اللغة
- بين الجميل والحسن

مدخل إلى معرفة الجميل

لم يحظَ علم الجمال في عصر من العصور بمثل حاله في حضارة اليوم من مكانةٍ وأهميةٍ. فبعد أن كان فرعاً من فروع الفلسفة غايته البحث في الجمال عامة، وفي الإحساس الذي يتولّد في النفس من خلاله. أصبح يتَّجه لأن يكون علماً من العلوم الوضعية، له أسسه المستقلة، وطرائقه، ومنهجيته. يقول بول فاليري: (نشأ علم الجمال يوم تفتَّح حس الفيلسوف للملاحظة، وقلبه للشوق). إنَّ الشعور بالجمال وتذوُّقه راسخان في الإنسان لا يتوقفان عن تغذية وعيه. وبحث الإنسان عن الجمال كما يقول (جيلسون)[1] موضوع رغبة وحب، رغبة في أن يحقِّق ذاته في عالم مؤنسنٍ متناسق، وحب أن يرى نفسه فاعلاً مبدعاً بمعرفة قوانينه، ونظام حركته وتطوُّره.

إنَّ الفلسفة الأفلاطونية تُعَدُّ أصلاً لجذور كلِّ علم للجمال.

فالفيلسوف اليوناني (أفلاطون) يتصوَّر في عالم الأفكار جمالاً مطلقاً لا يدرك بالبصر أو السمع، ونحن باسمه نحكم على هذه الأنواع غير الكاملة من الجمال في هذه الحياة الدنيا، لأننا ورثنا الذكرى المهمة لهذا المثال من حياة سابقة عشناها في محفل الآلهة.

إنَّ ماهية الجمال توجد في النموذج في مثال الجمال الخالد الذي يضيء عالم الجمال كما تضيء الشمس العالم الأرضي. الجمال في ذاته مثال مطلق غير

---

(١) جيلسون Gilson. E مدخل إلى فنون الجميل. باريس ١٩٦٣ ص٥.

محسوس لا يمكن أن يسبقه مثال آخر أو أن يأتي بعده. ولكنه وحده الجدير بأن يسعى المرء إلى الاقتراب منه[٢].

الجمال في ذاته هو الله عينه كما تشرح لنا نظريات الزهد في المأدبة[٣].

إنَّ عشق جسد جميل يؤدي إلى عشق النفوس الصالحة ومن ثم الأفكار، وأخيراً القدرة الإلهية نفسها. وبعد فإنَّ منبع كلِّ جمال هو جمال أول ينفث، بمجرد وجوده، الجمال في كلِّ الأشياء التي نسمِّيها جميلة كما جاء في فيدون[٤]. ويرى (سقراط) أنَّ الجميل يصير جميلاً بالجمال. حيث يقول في محاورة (فايدوس) إننا بعد أن هبطنا إلى هذا العالم عرفنا الجمال معرفة أوضح من معرفتنا لسائر الحقائق بواسطة أكثر حواسنا نوراً بواسطة البصر أدق أعضاء الجسم.

وصار الجمال يشترك في كونه أكثر الأشياء وضوحاً، كما أنَّه أجدرها بالحب، غير أنَّ الإنسان يسعى طول حياته إلى الاتحاد بهذا الجمال غير المتجسِّد، غير المادي. إنَّ البحث عن الجمال هو رغبة في الخلود، ونوع من إرادة التطهير التي تبعث في الإنسان الحب والغبطة.

أمّا أفلوطين (٢٠٥ – ٢٧٠) فيعرِّف الجمال بالوحدة وبالصورة الخالصة، والترتيب. فالجمال في الموجودات هو تماثلها وانتظامها؛ ذلك لأنّ الحياة صورة، والصورة جمال.

---

(٢) دنيس هويسمان. علم الجمال (الاستطيقا). ص١٩.

(٣) حوار لأفلاطون حول الحب ينطلق من الجمال الجسدي، فالجمال الروحي، فالجمال الكامل الأبدي.

(٤) حوار لأفلاطون فيه آخر لحظات سقراط وآخر آرائه لتلاميذه قبل مقتله.

ويـرى الدارسـون أنَّ المعرفـة الجماليـة لا تقتصـر علـى معرفـة الأشـياء كمـا هـي وفـق مبـادىء المعرفـة العامـة؛ إنّمـا تفـرض وجـود ماهيـة جماليـة تعـبِّر عن الموجود، وعن صفته الجمالية المولّدة للشعور الجمالي الذي ندرك الموجود بموجبه.

ويتَّفـق المثـاليون علـى أنّ الجميـل ينتمـي إلى العـالم الروحـي الأمثـل لكنَّـهم يختلفون على المنبع حيث تؤكّد المثالية الموضوعية أنَّ الجميل ذو طبيعـة متكاملـة مستقلة عن ذات الإنسان الذي يقتصر دوره على التأمل وحسب؛ لأنّ الجميل يفـرض موضوعاً على العقل، وهو روحي بطبيعته.

إنـه بكلمـة واحـدة (مطلـق)[٥]. ولا تبتعـد الفكـرة الدينيـة عـن هـذه النظـرة؛ إذ تقـوم علـى العلاقـة الثنائيـة (اللّه ـ المخلوقـات) فـاللّه يخلـق الأشـياء الجميلـة الـتي تتمتّـع بوجود مستقل وسامٍ وموضوعي في اللّه الخالق الأوحد.

أمّـا المثـاليون الذاتيـون فيؤكّـدون أنَّ الـذات الإنسـانية هـي المنبـع الخـالص للجمـال، ويلخِّصـون فكـرتهم الأم بـأنَّ أيـة ظـاهرة في العـالم إنمـا تكتسـب قيمتـها، وحقيقـة وجودهـا مـن خـلال وعـي الإنسـان. فـالوعي وحـده هـو القـادر علـى خلـق القيـم الجمالية وتقديرها. والذات مصدر التقويمات كلّها. وهكذا لا يصدر الجميل الذي نتحدث عنه إلاَّ عنا ولا يوجد إِلاَّ فينا، ومن أجلنا[٦].

وينطلق (أولانييه) من مبدأ مثالي ذاتي يتعلق بطبيعة الجمال الحسية التي تؤثر في عاطفـة الإنسـان، وتؤكِّـد فيـه الشـعور الجمـالي فـلا يمكـن أن يكـون الجميـل مدركاً، ولا متذوقاً إلاَّ من خلال الحواس ولا سيما السمع والبصر.

---

(٥) أفلاطون. المأدبة، باريس ١٩٦٤. ص٧٢.

(٦) شارل لالو. مفاهيم علم الجمال. باريس ١٩٥٢. ص٢.

ويرى الفيلسوف (كنت) أنَّ الجمال الطبيعي شيء، والجمال الفني تمثيل جميل لشيء ما؛ لشيء ليس جميلاً بصورة ضرورية طبقاً لجمال آخر في الطبيعة؛ إذ من الممكن أن نجعل القبح الطبيعي جمالاً فنياً.

فجمال الشيء لا يتوقف على طبيعته بل على حرية الإدراك والتخيل؛ تلك العملية تتمُّ لدى أي ناظر فيما إذا وقع بصره على هذا الشيء مهما كانت طبيعته، خارجاً عن هذا الناظر.

هذا التقابل بين الشخص المفكِّر، وبين الشيء المفكَّر فيه هو عرض خاطئٌ للمشكلة الجمالية. والعرض الحقيقي ليس أمر فصل هذين العاملين بعضهما عن بعض؛ وإنّما هو تعاونهما.

فلا إبصار بدون شبكة عينية؛ ولكن مع وجود الشبكة لا إبصار بدون شعاع ضوئي.

وجمال نغمٍ حلوٍ، أو قبح لحنٍ متنافرٍ يتوقّفان بعض الشيء عليَّ وعلى انفعالي الشخصي؛ ولكنّي مرتبطٌ بهما أيضاً ما داما يجعلانني أهتزُّ نفسياً وجسمياً.

وقد ظنَّ كثير من المشرِّعين في علم الجمال أنّ عواطفنا تصبح أجمل كلَّما كشفت عن الجوهر العميق للأشياء أكثر مما تفعله الطبيعة التي لا تقدِّم لنا سوى مظاهر سطحية، أو ما يفعله العلم الذي لا يُبرز سوى تجريدات اصطناعية[٧].

وفي رأي (كنت) هناك أربع قضايا تحدِّد الجمال[٨].

الذوق: هو ملكة الحكم على شيء، وعلى طريقة تعبير متجردة سواء بالرضى أو بالرفض. ويكون جميلاً ما يعبِّر بالرضى.

---

(٧) شارل لالو. مبادئ علم الجمال. ص ٢٢ — ٣٩.

(٨) أندريه ريشار. النقد الجمالي. ترجمة هندي زغيب. ص٢١٠.

يكون جميلاً ما يكون موضوع إعجاب؛ فالجميل يعجب دون مفهوم. أي دون اللجوء إلى منطق ضيِّق. يعني دون الحاجة إلى إثبات الجمال بحجة.

الجمال هو شكل القصدية في الشيء الجميل. وإذا كان النافع يوحي بالهدف أو بالاستعمال فإنَّ الجميل على العكس لا يوحي بعلة وجوده، بل يوحي بارتباط داخلي ضمن تكوين الأثر.

يكون جميلاً ما يكون معروفاً هكذا دون مفهوم معين على أنه اكتفاء ضروري. إذاً فالجميل هو ما كان أبداً حائزاً على رضى شامل كافٍ ضروري.

ومن صفات الجمال التي حلَّلها الفيلسوف (كنت) في كتابه: "نقد الحكم"[٩] أنه موضوع امتاع نزيه خالص. ويتضح معنى ذلك عند التفريق بين الشيء الجميل، والشيء الشهي، أو اللذيذ، وبينه وبين الشيء الجيد، أو النافع؛ فقد نحكم على شيء فنقول: شهي، أو لذيذ إذا أمكن أن يجلب لذة وسروراً. وقد نحكم عليه فنقول: جيد، أو نافع إذا استطاع أن يسدَّ عوزاً، أو يقضي حاجة.

ولكننا في حكمينا إنما نصدر عن مطمع؛ فليس كلا الحكمين نزيهاً؛ لأنَّ اللذيذ والنافع يلائمان رغباتنا، ويرضيان ميولنا. بيد أن الحكم الصادر عن الذوق الفني خالٍ من هذه الشوائب، حاصل في حالة تأمل محض.

وقد أشار (كنت) في معرض تحليله للجمال وصفاته، إلى أنه يتعيَّن بالتناسب القائم بلا هدف أو بحسب تعبير (هو غائية تلمح في الشيء الجميل دون تصور أي غاية).

---

(٩) د. عبد الكريم اليافي. دراسات فنية في الأدب العربي. ص٦٦-٦٧.

وتحسن الإشارة إلى أَنَّ هذا القول يشكِّل قالباً جديداً تلوح منه الفكرة القديمة الزاعمة أَنَّ الجمال هو الوحدة التي تلمح من خلال الكثرة، أو الكمال الملموح لمحاً مبهماً.

يقول ليبنتز (إن الجمال تصوُّر مبهم للكمال).

أما الفيلسوف الألماني (هيغل) الذي تزخر مؤلفاته في علم الجمال بثروة لا ينفد معينها فيرى أنَّ العقل وحده هو القابل للحقيقة. وكل ما هو جميل يجب أن يكون حقاً وصدقاً جميلاً. الخير الكلي حق كلي وبالتالي جمال كلي.

وعندما نقول: إن الجمال فكرة نقصد بذلك أن الجمال والحقيقة شيءٌ، فالجميل لا بدَّ بالفعل أن يكون حقيقياً في ذاته. والفكرة بالفعل حقيقية لأنها متصوَّره في الفكر بصفتها هذه بمقتضى طبيعتها، ومن وجهة نظر شموليتها؛ غير أن المفروض بالفكرة أن تحقق نفسها خارجياً، وأن تحوز وجوداً محدَّداً من حيث هي موضوعية طبيعية، وروحية.

وبقدر ما يبقى المفهوم غير قابل للانفصال عن تظاهره الخارجي فإنَّ الفكرة لا تكون حقيقية فحسب بل جميلة كذلك. على هذا النحو يتحدَّد الجميل بأنه التجلي المحسوس للفكرة. فالجمال هو ما يميز الهيئة بعينها سواء في حالة السكون أم الحركة بصرف النظر عن تكيف هذه الحالات مع تلبية الحاجات، وبصرف النظر عما يمكن أن يكون في الحركات نفسها من جانب مؤقت، وعارض. غير أنَّ الجمال لا يمكن لغير الشكل أن يعبِّر عنه؛ لأَنَّ الشكل هو وحده التظاهر الخارجي الذي بواسطته نضع مثالية الكائن الحي تحت متناول حواسنا، وتأملنا الحسيين.

ويذهب (هيغل)[١٠] إلى أن الفن إذا بلغ غايته القصوى فإنه يشترك مع الدين، والحياة في تفسير الإلهي، وإيضاحه. وكذلك بالنسبة لأكثر المطالب الإنسانية

---

(١٠) هيغل. فكرة الجمال. ترجمة جورج طرابيشي. ص٣٣-٥١.

عمقاً، وأشد حقائق الروح اتساعاً[11]. أما الصوفيون فيفضلون الموقف السلبي القائل بعدم وجود منهج لعلم الجمال، ويذهبون إلى أن العقل وحده لا يكفي لتفهم الجمال؛ بل لا بد أن نقف خارجاً عن هذا العقل في حالة من الانجذاب للكشف عن حقائق غير حسية.

وباسم منهج جمالي علمي ينص المبدأ الأساسي للجمالية الماركسية على وجوب معاملة الفن كأيديولوجيا، وعلى تشديد اللهجة على الطابع الطبقي للفن؛ لأن هناك رابطة محددة بين الفن والشروط المادية (مجمل علاقات الإنتاج).

فالعمل الفني يحقق وحدة متناغمة بين الشكل، والمضمون. لكنَّ المضمون بحسب هذا المنهج هو الذي يحدِّد الشكل؛ لأن لكل تشكيلة اقتصادية للمجتمع شكلاً فنياً يتطابق معها، ويعبِّر عنها بهذه الصورة أو تلك. فالممارسة التاريخية الاجتماعية هي التي ولَّدت في رأي ماركس (أذناً موسيقية وعيناً حساسة لجمال الأشكال، أي أن الجميل لا يكون خارج الواقع المحسوس).

ويرى ((هربرت ماركوز))[12] في كتابه (البعد الجمالي) أنَّ علم الجمال ذاتي، وموضوعي في آن واحد. فالجمال الذي نتحدَّث عنه هو فينا وبنا ومن أجلنا. والأشياء لا تتصف بالجمال أو القبح إلا من خلال تصوُّرنا لها، وتفهمنا إياها. فهي ما هي عليه، وكل نعت خارجي عنها لا يأتيها إلا منا. وهكذا فإن مغيب الشمس يثير في الرجل العامي فكرة العشاء، ويثير في العالم فكرة تحليل الضوء. وليس مغيب الشمس جميلاً إلاَّ عند الذي ينظر إليه بعيني فنان وهو مأخوذ داخلياً بتأمله.

أما الناقد (جيروم ستولينتز) فيشير في كتابه (النقد الفني) أثناء مناقشته فكرة الجمال إلى أنَّ الوجه الجميل والمتناظر الشكل يمكن أن يكون بارداً،

---

(١١) دنيس هويسمان. علم الجمال. ص٤٥.

(١٢) هربرت ماركوز. النقد الجمالي. ترجمة جورج طرابيشي. ص١٣.

أو عديم التعبير. فالمدلول الروحي يجب أن يتجسَّد من خلال ما هو أساسي وجوهري فيه. يبث الحياة في التظاهر الخارجي من أوله إلى آخره الروح المتجسدة في الواقع الفعال.

إنَّ إدراك الجميل في الفن لا يتم دون الأخذ بعين الاعتبار طابعي الإبداع الفني (الأسلوب والمضمون). إذاً الفن جميل دوماً. وربما فسَّر لنا ذلك سبب إطلاق مصطلح الفنون الجميلة الذي يبدو وكأنه مؤسَّس ميدانياً على هذا التقويم الجمالي[١٣].

فالفن يخطب إعجاب المتذوقين؛ ليس لأنه يصور موضوعات جذابة أو جميلة فحسب إنما لأنه يحقق من جانب آخر (الإغراء مع القبح، والسحر مع المقرف).

وهذا لا يعني أنَّ الفن يجمِّل قبح الواقع؛ وإنما يصوِّره بتعبير جميل. وهذه نقطة دقيقة يجب توكيدها. فمزية الفن هي: أنه يجعل ظواهر الواقع أكثر بروزاً دون تغيير قيمتها الجمالية. وهكذا فإنَّ الوصف البليغ (لأحدب نوتردام) لـ (هيغو) لا يجمِّل هذه الشخصية بل على العكس يعبِّر قصدياً عن قبحها.

ولو تساءلنا عن الجهاز الذي تتبدَّى فيه النفس من حيث هي نفس لذهب بنا الفكر حالاً إلى العين؛ ففي العين تتركَّز النفس؛ لأنها لا تبصر عبر العين فحسب؛ بل من هذه الأخيرة يمكن أيضاً إبصارها.

إنَّ مهمة الفن هو العمل على أن يغدو الظاهراتي في مختلف نقاط سطحه هو العين، مقر النفس، كاشفة الروح. ولعلنا نذكر البيتين الشعريين المشهورين اللذين يناجي فيهما (أفلاطون) النجمة ASTER بالقول:

حين تنظرين إلى النجوم، وانجمتاه.

أَودُّ لو كنت أنا السماء ذات المئة عين، لأتأملك من عالي سمائي.

---

(١٣) ستولنتيز. النقد الفني. ص٢٨٧.

ولعله في مقدورنا لو قبلنا المعنى أن نقول: إن الفن يجعل من كل وجه من وجوهه (أرغسا)[١٤] له ألف عين من أجل أن تتبدَّى النفس والروح في جميع نقاط الظاهراتية[١٥]. ولعل من فوائد هذه الدراسة أنها ستحرِّرنا من أثقال قضية النسبية الجمالية. وإذا كان سيتاح لنا أن نتحسس الوجود الحقيقي لتبدُّل الذوق عبر العصور فإننا سنجد تفسير ذلك في وظائف الفن التي تبيِّن أنَّ التغيير الحادث في ذوق جماعة بشرية يتوافق مع حاجة جمالية عند هذه الجماعة. وهذه الحاجة الجمالية تأتي مباشرة بعد الحاجات الانتفاعية كالمأكل والمسكن عند بعض المجتمعات البشرية.

إن الدوافع الجمالية قد تكون مختلفة وكثيرة. ومن أبرزها[١٦]:

١- إننا بحاجة إلى شيء من معايشة الفن؛ لأننا بحاجة إلى أن نجعل حياتنا على قدر من الجمال والنبل.

٢- عندما تطبق علينا الهموم من كل جانب يحق لنا أن نفرَّ منها إلى خلوة حميمة مع الفن بأنواعه.

٣- وقد نلجأ إلى الفن أحياناً لإقامة علاقات بيننا وبين الآخرين؛ لأنها تتيح لنا اكتشاف مسالك في حياة الناس.

٤- وأحياناً نشعر بجوع وعطش إلى الأحاسيس الملتهبة. وهو شعور أقرب ما يكون بالطبع إلى فكرة التطهير النفسي.

---

(١٤) (أرغس) أمير من أمراء مدينة (أرغوس) تقول الأسطورة: إنه كان له مئة عين وإن خمسين منها تبقى مفتوحة على الدوام.

(١٥) جيروم ستولنتز. النقد الفني ترجمة د. فؤاد زكريا. ص٤٢٥.

(١٦) اتيان سوريو. الجمالية عبر العصور. ترجمة د. ميشال عاصي. ص٢٠-٢١.

٥- وقد نجد أنفسنا مدفوعين إلى البحث عن مشاعر غريبة من شأنها أن تفتح لنا أبواب كنوز عاطفية فيها من صفاء الجوهر، وخصائص السمو والعظمة ما يجعلها تشيع في داخلنا خلال فترة معينة كل ما نودُّ أن نراه ممتزجاً بلحمة وجودنا وسداه.

هناك من يرى أن المنفعة هي أساس التقدير الجمالي، وأننا نحكم على الشيء بأنه جميل لأنه نافع وهذا الرأي لا يقوم على أساس صحيح.

وهناك مدرسة ثانية ترى أنه يجب التمييز بين صفة الجمال وبين المنفعة.

فقد يكون الشيء غير نافع ومع ذلك جميل كالعشب السام مثلاً والحية الرقطاء، تقول: إنه جلد جميل ومع ذلك فإن الحية ذاتها ضارة.

ونحن في الواقع لا نصف الفن الجميل بالصواب والخطأ وكل ما يمكن وصفه به من هذه الناحية هو أنه سلوك، أو تعبير صادر من ناحية الفنان.

ولهذا فإننا يجب أن نؤكِّد بطريقة حاسمة الفصل بين القيمة الجمالية والأخلاق.

ثمة شعور بالجمال وثمة حكم بشعور الفرد أو إحساسه بهذا الجمال سواء كان الحكم تحليلياً أم تركيبياً.

ولكنَّ الحكم هنا يختلف عن الحكم الأخلاقي كما يختلف عن الحكم المنطقي.

فبينما نجد الحكم الأخلاقي يتخذ الإرادة والواجب أساساً له نجد أنه يتعذر إصدار حكم مطلق من الناحية الجمالية؛ لأن تعدُّد الأحكام الجمالية يرجع إلى الاختلافات العديدة بين أذواق الناس وإلى تنوع اهتماماتهم.

إن الاختلاف النظرة للجمال يعود إلى تعدُّد آراء الفلاسفة وعلماء الجمال في كل أمة.

فالفلاسفة يصدرون أحكامهم التي تعبِّر عن روح أمتهم. فمثلاً الإنكليز تجريبيون، والألمان مثاليون، والفرنسيون عقليون. والجمال عند الهنود يتمثل في شفاه غليظة منتفخة، وأنف مفرطح ضخم، وأهل بيرو ينسبون له الآذان الكبيرة..

وقد يصيب التطوُّر هذه الحاجات الجمالية مع الزمن على صعيد الفرد والجماعة؛ لتختلف الأذواق وتتحوَّل باختلاف العلاقات، وأنماط المعيشة، والتغيُّرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها.

فلو أخذنا الفن أداة للحكم على الحاجات الجمالية لوقتنا الحاضر لوجدنا أنها أصيبت بتغيُّرات جذرية؛ فالزائر الذي يتجوَّل في متحف للفن الحديث إذا انتقل من قاعة تضم لوحات انطباعية إلى قاعة أخرى تضم لوحات حديثة من الفن التجريدي أو التجسيمي لاجتاحه، ولا ريب، شعور بالانتقال من عالم إلى آخر، وإحساس بالغربة عميق.

إنَّ الانقلاب الكبير يستجيب لحركة ضرورية عميقة لا مفرَّ منها. وهذه الحركة ولدت داخل الفن استجابة لعوامل التطوُّر والميل الجارف إلى التجديد.

ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ حاجات الناس الجمالية كانت في جميع الأزمنة أكبر من حدود الفن، وأوسع من أن تشبعها آثاره. ولطالما بحثت تلك الحاجات عن كفايات لها عبر أشياء كالأسلحة والملابس والعربات والجياد والأثاث مما لا يمكن أن يكون من أعمال الفن، والآثار الجميلة.

ولو تأملنا النظريات الجمالية لتكوَّنت لدينا فكرة جوهرية مفادها أن الجمال يمثل نزوعاً إلى الكمال المتحرر في قليل أو كثير من قيود الوجود المادي، أو على الأقل الساعي إلى توحيد ظواهر الكون في مفهوم شامل متآلف العناصر؟.

لماذا نريد من إحساساتنا أن تتصل بكل ما هو جميل؟ فنختار من الطبيعة أبهى أماكنها لقضاء العطل، ونزيِّن ما حولنا بمختلف فنون العمارة والديكور. ونزيِّن

أنفسنا بالثياب والروائح الطيبة، وأحاديثنا بالأدب والشعر، ونضفي على أجواء عزلتنا ما نختاره من أعذب الألحان؟

هل هذا كله من أجمل البهجة التي يعطينا إياها الشعور بالجمال؟

وهل السعادة محصورة بجمال الروح والمكان الذي تقيم فيه؟

وهل يظهر الجمال إلا للمشاعر الحساسة ليداوي الرغبات إذا شوَّشتها تدخلات الحياة، وقبح الجانب السيء من الوجود؟

الجمال دعوة للتأمل في المعطيات الفنية سواء تلك التي صنعها الله بالطبيعة ومن جملتها الإنسان، أو تلك التي حاكى فيها الإنسان صنعة ربه.

هذه الدعوة إلى التأمل دعوة لإبهاج النفس، والاندفاع نحو الأمل. وفي كل أمل عنصر تحسين. وفي حدود الأفق الأخير للأمل يتحدَّد مصير الإنسان.

إنَّ انجذابنا نحو الجمال هو الخطوة الأولى نحو مصيرنا!!

الجميل في كتب اللغة

للجميل في كتب اللغة دلالتان:

أمَّا الأولى فحسِّية.

وأمَّا الثانية فمعنوية.

إنَّ الجميل هو الشَّحم يُذَاب ثم يُجمع، والجميل هو ضدُّ القبيح أيضاً[١٧].

ويشير ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) إلى المناسبة بين الدلالتين بقوله:

((والجميل الوَدك بعينه. ووصف الرجل به يُراد أنَّ ماء السِّمن يجري في وجهه))[١٨] ويبدو أنَّ الدلالة الحسِّية للفظة الجميل كانت قد بدأت بالتراجع في الشعر العربي منذ أيام الجاهلية الأخيرة تاركةً مواقعها للدلالة المعنوية.

لقد استعملها أبو خراش الهذلي بمعنى الودَك في قوله:

يقاتِلُ جوعهم بمُكلاَّت
من الفُرتِّى يرعبها الجميلُ(١٩)

أما الدلالة المعنوية فتبدو أكثر دوراناً في أشعار القدماء.

يذكر على سبيل المثال قول أبي خراش نفسه معتذراً إلى زوج أخيه المقتول عروة:

ولا تحسبى أَنِّى تناسيت عهده
ولكنَّ صبرى يا أميمُ جميلُ

---

(١٧) لسان العرب، وتاج العروس وجمهرة اللغة. ص١١٠.

(١٨) أدب الكاتب. ص٨٣.

(١٩) ديوان الهذلين ١٤١/٢ المكلَّلات: الجفان الممتلئة، الفرتي: الخبز الغليظ، يرعب: يملأ.

وقول ذي الإصبع العدواني مخاطباً ولده أسيداً:

أأسيدُ إن مالاً ملكت فسرْ به سيراً جميلاً[٢٠]:

وقول عبد قيس بن خفاق ينصح ولده جبيلاً:

وإذا تشـــــاجر في فـــــؤادك مـــــرةً

أمـــران فـــاعمد للأعـــفِّ الأجمـــل[٢١]

---

(٢٠) ديوانه. ص٧٢.

(٢١) الأصمعيات. ص٢٣.

بين الجميل والحسن

ليـــــــس الجمـــــــــال بمـــــــئزر
فـــــــاعلم وإن ردّيـــــــــت بـــــــــردا
إنَّ الجمـــــــــــــالَ معـــــــــــــادنٌ
ومنـــــــــاقبٌ أورثــــــــن حمــــــــدا

عمرو بن معد يكرب

وفي كتاب الأغاني القصة التالية:

((قالت سكينة لعائشة بنت طلحة: أنا أجمل منك)).

وقالت عائشة؛ بل أنا. فاختصما إلى عمر بن أبي ربيعة فقال: أَمَّا أنتِ يا سكينة فأملح منها.

وأَمَّا أنتِ يا عائشة فأجمل منها. فقالت سكينة: قضيتَ لي والله[٢٢].

تدلُّنا هذه القصة على نوعين للحسن وهما الملاحة والجمال.

وإذا أردنا أن نتفهَّم معاني كلٍّ من هذين النوعين وجدنا ذلك في أخبار هاتين السيِّدتين.

فقد جاء في الأغاني[٢٣]:

((كانت سكينة عفيفة سَلِمَة برزةً من النساء تجالس الأجلَّة من قريش، ويجتمع إليها الشعراء، وكانت ظريفة مزَّاحه. ويُروى أنها كانت أحسن الناس

---

(٢٢) ج ١٤. ص ١٦٢.

(٢٣) ج ٢. ص ١٥٩.

شعراً، وكانت تصفِّف جمَّتها تصفيفاً لم يُرَ أحسن منه؛ حتى عرف ذلك وكانت تلك الجمَّة تسمَّى السكينية)).

وأمَّا عائشة فكانت بديعة حقاً مثالاً في تناسب التكوين واعتدال الملامح، وانسجام الأعضاء كما يتصوَّر الذوق العربي إذ ذاك.

ونجد في عيون الأخبار ما يؤكِّد هذا التفسير.

قالت امرأة خالد بن صفوان له يوماً: ما أجملك!! قال: ما تقولين ذاك؛ ومالي عمود الجمال، ولا عليَّ رداؤه، ولا برنسه.

قالت: ما عمود الجمال، وما رداؤه، وما برنسه[٢٤]؟

قال: أمَّا عمود الجمال فطول القوام في قِصر، وأمَّا رداؤه فالبياض ولست بأبيض.

وأمَّا برنسه فسواد الشعر وأنا أصلع. ولكن لو قلت: ما أحلاك!! وما أملحك كان أولى.

وعدَّد ابن المقفع في (الأدب الصغير) أموراً لا تصلح إلاَّ بقراءتها ومنها أنَّه (لا ينفع الجمال بغير حلاوة)[٢٥] وهذا يدلُّ على أنَّ الجمال غير الحلاوة، أو أنّه بها يتمُّ نفعه ويكتمل رونقه.

وقد كتب الوزير الحافظ ابن حزم رسالة (في مداواة النفوس، وتهذيب الأخلاق) جاء فيها: ((ورب جميل الصفات على انفراد كلٍّ منها بارد الطلعة غير مليح ولا حسن، ولا رائع، ولا حلو)).

---

(٢٤) الأغاني. ج ٤. ص ٢١.

(٢٥) رسائل البلغاء. ص ٢٨.

الفصل الثاني:

- معاني العين
- ثقافة العين وأهميتها
- أنواع النظر

معاني العين

العين[1] حاسة البصر والرؤية. والجمع أعينُ وأُعْيُنات الأخيرة جمع الجمع والكثير عيون، وتصغير العين عُيَيْنَةَ ومنه قيل ذو العيينتين للجاسوس.

والعَيْن: الذي يُبعث ليتجسَّس الخبر.

قال تعالى: ﴿ ولتُصنع على عيني لتربَّى من حيث أراك ﴾.

وفي التنزيل: (واصنع الفلك بأعيننا) بإبصارنا إليك، وعين الله لا تفسَّر بأكثر من ظاهرها، ولا يسع أحداً أن يقول: كيف هي ما صفتها؟

والعَيَن: أن تصيب الإنسان بعين.

وعان الرجل الرجل يعينُه عيناً فهو عائن والمصاب مَعِينٌ على النقص ومَعْيون على التمام.

قال الزجَّاج: المعَين: المصاب بالعين. والمَعْيون الذي فيه عين:

قال عباس بن مرداس:

قد كان قومك يحسبونك سيِّداً
وإخال أَنَّك سيِّدٌ مَعْيُونُ

---

(١) ابن منظور. لسان العرب. الجزء الثالث. ص ٣٠١.

ورجل مِعْيان وعَيُونٌ شديد الإصابة بالعين والجمع عُيُن وعِيْن ويُقال أتيت فلاناً فما عيِّن لي بشيء، وما عيَّنني بشيء أي ما أعطاني شيئاً والعَين والمعاينة النظر. رآه عِياناً: أي مواجهةً.

وتعيَّنت الشيء: أبصرته. ورأيت عائنة من أصحابه: أي قوماً عاينوني. نَعِم الله بك عيناً: أي أنعمها.

الْعَيَن: عظم سواد العين وسَعَتها.

ويُقال: أعين: إذا كان ضخم العين واسعها، والأنثى عيناء والجمع منها عِيْن ومنه قيل لبقر الوحش عِين صفة غالبة. قال تعالى: ﴿ وحُورٌ عِين ﴾ .

وفي الحديث: (إنَّ في الجنة لمجتمعاً للحور العين).

وعُيون البقر: ضرب من العنب الأسود ليس بالحالك، ولا صادق الحلاوة؟

وثوبٌ معيَّن: في وشيه ترابيع صغار تشبَّه بعيون البقر الوحشي.

فلانٌ عَينُ الجيش: رئيسه. الاعتيان: الارتياد.

وبعثنا عيناً: أي طليعة يعتاننا ويعتان لنا أن يأتينا بالخبر.

العين: الجاسوس.

أعيان القوم: أشرافهم وأفاضلهم على المثل بشرف العين الحاسة.

العَين: عين الماء، وينبوع الماء الذي ينبع من الأرض. والجمع أَعْينُ وعُيُون.

وفي الحديث: (خير المال عينٌ ساهرةٌ لعين نائمةٍ).

أراد عين الماء التي تجري، ولا تنقطع ليلاً ونهاراً، وعين صاحبها نائمة؛ فجعل السهر مثلاً لجريها.

عانتِ البئر عيناً: كثر ماؤها.

العيِّن: الجديد - العَينْ: الناحية.

عين الشمس: شعاعها الذي لا تثبت عليه العين.

العَيَن: المال الحاضر - النقد.

والعَيْن: في الميزان المَيْل: قيل هو أن ترجَح إحدى كفتيه على الأخرى.

يُقال: ما في الميزان عَين (أي ميل).

وعَيْنُ الشيء: حقيقته.

جاء الحق بعينه: أي خالصاً واضحاً.

وعين كلّ شيءٍ: خياره، ونفسه، وحاضره، وشاهده.

لا أطلب أثراً بعد عَين: أي مُعايَنَه.

لا أترك الشيء وأنا أعاينه، وأطلب أثرهُ بعد أن يغيب عني. أصلُه أنَّ رجلاً رأى قاتل أخيه فلما أراد قتله قال:

أفتدي بمائِة ناقة فقال: لست أطلب أثراً بعد عَين. وقتلَه.

الأعيانُ: الإخوة يكونون لأب وأمٍ ولهم أخوة لِعَلاَّت فعلت ذلك عَمدَ عين:

إذا تعمَّدته بجدٍ وتعَيين.

ثقافة العين وأهميتها

إنَّ للعيون لغة خاصة[٢] ومن يفهمها يدرك علماً كثيراً في وقت قصير، ويفتح عينيه على آفاق جديدة من ثقافة العين وتربيتها.

فالمناظر الطبيعية، والألوان المنسجمة، والوجوه الجميلة ثقافة بصرية ممتعة يمكن تعليمها للأطفال قبل بلوغهم مرحلة الكلام؛ لأنّ ذلك يكوِّن لهم إحساساتٍ جمالية مبكّرة، ويريحهم في مهودهم؛ فينشرحون للحياة، ويتذوّقونها بعيونهم وهم صامتون.

واللغة المرئية تدرِّب العيون على الرؤية والتمييز فإذا كبر الصغار ظلَّت لهم دربتهم قوة تحمي العيون إلى آخر العمر سليمة نفّاذة.

يركن الطفل في حضن الأم ساعات وهي تحنو عليه بدفئها وحنانها، تبادله النظرة والابتسامة.

إنَّ تربية العيون تعطي صاحبها ثروة من الحب والجمال تفوق كثيراً ما يكسبه عن طريق سواهما.

الحواس جميعها مهمةٌ في حياة الإنسان؛ غير أنَّك بنظرة واحدة من عين مثقَّفةٍ جميلة تقرأ ما لا يقرأ في كتب عديدة خصوصاً إذا كانت العين الأخرى ذات ثقافة عليا من المستوى ذاته.

---

(٢) أسعد علي. مسرح الجمال والحب والفن، ص ١٥٧ ـ ص ١٥٨.

وقد فطن الشعراء إلى ما تقرره العيون من العلاقات الاجتماعية فقال قائلهم:

والعـــين تعـــرف مـــن عيـــنى محدثـــها
إن كـــان مـــن حزبـــها أو مـــن أعاديـــها

ولو تأمل الإنسان في عينيه، والمقدرة التي أودعها الله فيهما لتعلم أمورا كثيرة؛ فبالعين يرتفع الإنسان إلى السماء بلمحة.

ولو فكر بذلك لعرف أن عينيه تدلانه على طريق المقدرة فيه، وتلهمانه الطموح ليدرك الأبعاد المديدة في وقت قصير.

في سورة طه الآية (٣٩) ﴿ وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني﴾.

يصنع الله عبده ورسوله على عينيه؛ أي يربيه محفوفا بعنايته وحفظه وإكرامه. وجمال التصوير في الجمع بين المنظر الحسي والمنظر النفسي.

فالعين محفوفة بالأجفان والأهداب والحواجب لأنها حساسة وأثيرة وعليها تقوم الصناعة التربوية.

هنا إشارتان:

الأولى: تعني أن من نربيهم لهم علينا حق الرعاية والحفظ كما لعيوننا.

وفي ملاحظة التكوين الجمالي للعيون ندرك أية رعاية إلهية أحاطت بالعين فكونتها من طبقات، وغطتها بأجفان، وظللت الأجفان بأهداب، ورفعت فوقها ستار الحاجبين.

الثانية: تعني أن الإنسان الذي تربيه مثل العين سريع العطب.

وهذا الإنسان مثل العين قدرة خارقة إذا رعيت تنطلق في الأبعاد، وتدرك ما في الآفاق، وتضيء ما في النفس.

هذا سرُّ المنهج العيني الذي يحمل العشّاق على القول: (أحببته من أول نظرة).

العين والعون صديقان.

والنفوس المتعطِّشة للحب تجد في العين ينبوع حنان ومحبة فتلقي ذاتها إليه لترتوي من الظمأ.

وفي ظلال العينين يتعلَّم الإنسان معنى الحب، وتبسط الأزاهير أيديها للنسيم، ويرقص العشب على إيقاع الندى، وتكتب الأغصان أناشيد الطيور، وألحان الحياة.

أنواع النظر

وللنظر أنواع[٣]: فإذا نظر الإنسان إلى الشيء بمجامع عينه قيل: رمقه وإذا نظر من جانب أذنه قيل: لحظه. فإن نظر بعجلة قيل: لمحه. فإن رماه ببصره مع حدَّة قيل حدجه.

وفي حديث ابن مسعود (حدِّث القوم ما حدجوك بأبصارهم) فإن نظر إليه بشدَّة وبحدَّة قيل: أرشقه، وأسفَّ النظر إليه. فإن فتح عينيه لشدَّة النظر قيل: حدَّق. وإن انقلب حملاق عينيه قيل: حملق. فإن أعاره لحظ العداوة قيل: نظر إليه شزراً. وإن نظر إليه بعين المحبة قيل نظر إليه نظرة ذي علق. وإن فتح عين مهدِّد قيل حمج، وإن فتح عينيه لا يطرف قيل شخص والإشارة[٤] بمؤخرة العين الواحدة نهيٌ عن الأمر، وتفتيرها إعلان بالقبول، وإدامة نظرها دليلٌ على التوجُّع والتأسُّف. وكسر نظرها آية الفرح. والإشارة إلى إطباقها دليل على التهديد، وقلب الحدقة إلى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيه على مشار إليه. وإذا تَهيَّأ الرجل للبكاء قيل: أجهش. فإنَّ امتلأت عينه دموعاً قيل: اغرورقت، وترقرقت. فإذا سالت قيل: دَمَعَت، فإذا صاح مع البكاء قيل: أعول. فإذا حاكت دموعها المطر قيل: همت فإذا كان البكاء صوتاً قيل: نحب ونشج.

يقول الوليد بن يزيد:

ما زلت أرمقها بعيني وامق

حتى بصرتُ بها تقبِّل عودا

فسألت ربِّي أن أكون مكانه

وأكون في لهب الجحيم وقودا

---

[٣] أبو منصور الثعالبي. فقه اللغة وسرّ العربية. ص ١٢٣-١٢٥.

[٤] بن حزم الأندلس. طوق الحمامة. ص ١٣٦.

وسمع إبراهيم بن المهدي غناء جارية[٥]:

أشـــرت إليـــها هـــل عرفـــت مودَّتـــي
فـــردَّت بطـــرف العـــين إنِّـــي علـــى العـــهد

فجِـدت عـــن الإظـــهار عمـــداً لســـرِّها
وحـــادت عـــن الإظـــهار أيضـــاً علـــى عمـــد

أليـــس عجيبـــاً أنَّ بيتـــاً يضمُّـــني
وإيـــــاك لا نخلـــــو ولا نتكلَّـــــم

ســـوى أعـــين يشـــكو الهـــوى بجفونـــها
وتقطيـــع أنفـــاس علـــى النـــار تضـــرم

إشـــــارةُ افـــــواه وغمـــــز حواجـــــبٍ
وتكســـــير أجفـــــان وكـــــفٌ يســـــلِّم

وقد أورد أبو حاتم[٦] عن الأصمعي عن يونس بن مصعب قال: أتاني رجل من قريش يستشيرني في امرأةٍ يتزوَّجها فقلت: يا ابن أخي: أقصيرة النسب أم طويلته؟ فلم يفهم عني.

فقلت: يا ابن أخي: إنّي أعرف في العين إذا عرفتْ، وأُنكر فيها إذا أنكرتْ، وأعرف فيها إذا لم تعرف، ولم تُنكر. أما إذا عرفت فتتحاوص، وأمَّا إذا أنركت فتجحظ، وأمَّا إذا لم تعرف ولم تنكر فتسجو؛ وقد رأيت عينك ساجية. فالقصيرة النسب هي التي إذا ذكرتْ أباها اكتفت به. والطويلة النسب هي التي لا تُعرف حتى تطيلَ في نسبتها. فإيَّاك أن تقع في قوم قد أصابوا كثيراً من الدنيا مع دناءة فيهم فتضيع نفسك فيهم.

---

(٥) ابن عبد ربه. العقد الفريد. ج ٣. ص ٢٠١.

(٦) ابن عبد ربه. العقد الفريد. ج ٧. ص ٩٧.

ويُقال: إنَّ المرأة إذا كانت مبغضةً لزوجها فآية ذلك أن تكون عند قربه منها مرتدة النظر عنه كأنَّما تنظر إلى إنسان وراءه. وإذا كانت محبةً له لا تقلع عن النظر إليه.

قال المبرِّد: أردت أن أعلم كيف حالي عند امرأتي، فالتفتُ وقد نهضْتُ من بين يديها فإذا هي تكلح في قفاي أي (تكشِّر في عبوس).

وإدمان النظر من علامات الحب. فالعين باب النفس وهي المنقِّبة عن سرائرها، والمعبِّرة عن ضمائرها. وكثيراً ما يكون لصوق الحب بالقلب من نظرةٍ واحدةٍ.

فالشاعر يوسف بن هارون[٧] كان مجتازاً عند باب العطَّارين بقرطبة. وهذا الموضع كان مجتمع النساء. فرأى جاريةً أخذت بمجامع قلبه، وتخلَّل حبُّها جميع أعضائه. فانصرف عن طريق الجامع، وجعل يتبعها، فلمّا نظرت منه منفرداً عن الناس لا همَّة له غيرها انصرفت إليه وقالت: مالك تمشي ورائي ؟ فأَخْبَرهَا بعظم بليَّته بها. فقالت له: دع عنك هذا، ولا تطلب فضيحتي فلا مطمحَ لي في البته، ولا إلى ما ترغبه سبيل. فقال: إنِّي أقنع بالنظر. فقالت: ذلك مباح لك. فقال لها: يا سيِّدتي أحُرَّةٌ أم مملوكة؟ قالت مملوكة، فقال لها: ما اسمك؟ قالت: خلوة، قال ولمن أنت؟ فقالت له: علمك والله بما في السماء السابعة أقرب إليك مما سألت عنه، فدع المحالَ، فقال لها: يا سيِّدتي، وأين أراك بعد هذا؟ قالت: حيث رأيتني اليوم في مثل تلك الساعة من كلِّ جمعة.

قال يوسف بن هارون: ولم أرها بعد ذلك، ولا أدري أسماءٌ لحسَتْهَا، أم أرض بَلَعَتْهَا. وإنَّ في قلبي منها لأحرَّ من الجمر.

ويقول ابن حزم الأندلسي في كتابه (طوق الحمامة) فمن أحبَّ من نظرة واحدة وأسرع العلاقة من لمحة خاطرة فهو دليل على قلة الصبر، ومخبرٌ بسرعة السلوّ وهكذا في جميع الأشياء: أسرعها نموّاً أسرعها فناءً، وأبطؤها حدوثاً أبطؤها نفاذاً.

---

(٧) ابن حزم الأندلس. طوق الحمامة. ص ١٢٢-١٢٣.

ثم يتابع قائلاً: وإنّي لأطيل العجب من كلِّ من يدَّعي أَنَّه يُحب من نظرة واحدة، ولا أكاد أصدِّقه، ولا أجعل حبَّه إلا ضرباً من الشهوة.

وقد أنشد ابن حزم فيمن أحسَّ من نفسه بابتداء هوى، أو توجَّس من استحسانه ميلاً إلى بعض الصور فاستعمل الهجر، وترك الإلمام، لئلا يزيدَ ما يجدُ فيخرجَ الأمرُ عن يده[٨]:

سأبعدُ عن دواعي الحبِّ إنِّي
رأيت الحزم من صفة الرشيد
رأيتُ الحبَّ أوَّلُه التصدِّي
بعينك في أزاهير الخدود
فبينا أنت مغتبط مخلَّى
إذا قد صرت في حَلَق القيود
كمُغتر بضحضاح قريبٍ
فزلَّ فغاب في غَمْر المدُودِ

ويرى ابن حزم الأندلسي، أنَّ جوهر العين أرفع الجواهر، وأعلاها مكاناً، لأنّها نوريّة لا تُدرك الألوان بسواها، ولا شيء أبعد مرمى ولا أنأى غاية منها، لأنها تدرك بها أجرام الكواكب التي في الأفلاك البعيدة.

وتُرى بها السماء على شدَّة ارتفاعها وبُعدها. وليس ذلك إلاَّ لاتصالها في طبع خلقتها بهذه المرآة، فهي تدركها وتصل إليها بالصغر. لا على قطع الأماكن، والحلول في المواضع، وتنقُّل الحركات، وليس هذا الشيء من الحواس مثل الذوق واللمس لا يُدركان إلاَّ بالمجاورة، والسمع ولاشم لا يُدركان إلاَّ من قريب.

ويوضِّح أنَّ العين تنوب عن الرسول، ويُدرك بها المراد.

---

(٨) ابن حزم الأندلسي. طوق الحمامة. ص ١٢٥.

فالحواس الأربع أبواب إلى القلب، ومنافذ نحو النفس.

والعين أبلغها دلالةً، وأوفاها عملاً.

وهي رائد النفس الصادق، ودليلها الهادي، ومرآتها المجلوة التي بها تقف على الحقائق وتميّز الصفات، وتفهم المحسوسات:

وقد قيل: ليس المخبر كالمعاين:

ولأبي علي بصير قوله في النظر الخلس، والحب الصامت[٩]:

ألَّـــت بنـــا يـــوم الرحيـــل اختلاســـةٌ
فـــأضرم نـــيران الهـــوى النظـــرُ الخلـــسُ

فخاطبـــها صمـــتى بمـــا أنـــا مضمـــرٌ
وأنبســـتُ حتـــى ليـــس يُســـمَعُ لـــى حـــسُّ

أما العباس بن الأحنف باعث العذرية الأموية في عصر بني العباس فيتساءل كيف يخفي سره إذا غض طرفه عن النظر إلى وجه الحبيبة؟ مادامت الدموع تجري فتبوح بالسرائر.

هبونـــى أغـــض إذا مـــا بـــدت
وأملـــك طـــرفي فـــلا أنظـــر

فكيـــف استـــتارى إذا مـــا الدمو
ع نطقـــن فبحـــن بمـــا أضمـــر

---

(٩) ابن قتيبة ـ الشعر والشعراء ـ ص ٣٣٧.

ويرى الشاعر خالد الكاتب أنَّ العين ظالمة لا تعرف العدل[10]:

نظـــرت إلـــيَّ بعـــين مـــن لم يعـــدِلِ
لمـــا تمكَّـــن طرفـــها مـــن مقتلـــي

لمـــــا رأت شـــــيباً ألمَّ بمفرقـــــي
صـــــدَّت حـــــدود مفـــــارق متعجِّـــــل

وظللـــت أطلـــب وصلـــها بتملُّـــق
والشـــيب يغمزهـــا بـــألاَّ تفعلـــي

---

(١٠) زهر الآداب. ج ٢. ص ٢٣٩.

الفصل الثالث:

- محاسن العين
- أوصاف العيون الجميلة:
  - ❖ الفتور
  - ❖ العيون الكحيلة الساحرة
  - ❖ العين الحوراء
  - ❖ العين الزرقاء
  - ❖ العين الخضراء

محاسن العين[1]

الفتور: انكسار النظر فيه تبدو العين كأنّها ناعسة وكأنّها مريضة وليس لها مرض.

الدعَّج: أن تكون العين شديدة السواد مع سعة المقلة.

البَرَج: شدَّة سوادها وشدّة بياضها.

النَّجل: سعتها.

الكحَل: سواد جفونها من غير كُحْل.

الحَوَر: اتساع سوادها.

الوَطَف: طول أشفارها وتمامها.

ورجل **ملوَّز العين**: إذا كانتا في شكل اللوزتين.

واستحسن بعضهم في العين القَبَلَ: وهو ميل الحدقة في النظر إلى الأنف.

---

(١) أبو منصور الثعالبي. فقه اللغة وسرُّ العربية. ص ١٢١.

أوصاف العيون الجميلة

اعتمد الشعراء العرب في وصفهم العيون الجميلة على التشبيه والمقاربة، وأعربوا[٢] عن رقة شعورهم، وإحساساتهم بالجمال بلغة عذب جرسها، حلوة ألفاظها.

ومن العسير على الإنسان مهما أوتي من عذوبة اللفظ وروعة البيان، وقوة البلاغة أن يصف بكلمات محدودة جمالاً صنعه الخالق، وأن يعبِّر بقلمه القاصر عن معان ساحرة رسمتها يد القدر على لحاظ العيون.

في حركات المقلة والجفون والألحاظ تأثير كبير على جمال العينين.

والعينان هما أكثر أعضاء الإنسان حركة، وحركاتهما الدائبة لا تتخذ لوناً رتيباً خفيفاً كدقات القلب. بل إنَّ كلَّ ما في العين يتحرك وبشكل مختلف. الجفون تختلج، والأهداب ترتعش، والمقلة تدور، والحواجب تعلو وتهبط، وإنسان العين يضيق ويتَّسع، وعدسة العين داخل المقلة تنقبض وتنبسط. وكثير من هذه الحركات الظاهرة لها أثر ودلالة، ومعنى في رموز الوجدان تعبِّر عن المعاني المستعرة في أعماق النفوس.

فمن أوصاف العين المستحسنة الفتور، وهو انكسار النظر وذبوله في أصل الخلقة. وهو معنى وصفهم العين بالمرض والسقم. حلاوة الحركة في العين تكمن في الفتور، وغض البصر، وسحر اللحاظ. والفتور في عين المرأة هو إسبال لطيف بجفنيها، وهو نوع من الدلِّ والغنج يضفي على عينيها جمالاً فوق جمال.

---

(٢) الدكتور عبد الرحمن البابا ـ في أدب وطب العيون ـ ص ١٧.

قال ابن ميَّادة:

ونظـــرن مـــن خلـــل الســـتور بـــأعين
مرضـــى يخاطـــها الســـقام صحـــاح

وقال عبد الله بن جندب[3]:

ألا يـــا عبـــاد الله هـــذا أخوكـــمُ
قتيـــلٌ فـــهل فيكـــمُ اليـــوم ثـــائرُ
خـــذوا بدمـــى إن مـــتُّ كـــلَّ خريـــدةٍ
مريضـــة جفـــن العـــين والطـــرف ســـاحرُ

وقد نسب إلى معاوية قوله في جارية عرضت له في قصره فارتاع لجمالها فدعاها وافترعها بكراً ثم قال وكان قد ترك الشعر:

ســـئمت غوايـــتى فـــأرحت حلمـــى
وفيَّ علـــــى تحمُّلـــــى اعـــــتراض[4]
علـــى أنـــى أجيـــب إذا دعتـــنى
ذوات الـــدلِّ والحـــدق المـــراض

وقال أبو نواس[5]:

ضعيفـــة كـــرِّ اللحـــظ تحســـب أنـــها
قريبـــة عـــهد بالإفاقـــة مـــن ســـقم

---

(٣) محمد بن أحمد التجاني. تحفة العروس ومتعة النفوس، ص ٢٨٣.

(٤) زهر الآداب. ج ١. ص ٩١.

(٥) تحقيق أحمد عبد المجد الغزالي. القاهرة. ص ٥٤٢.

هذا الذبول والفتور يستحسنه أبو نواس بقوله:

لـــولا فتـــور في كلامـــك يشـــتهى
وترفّقـــى بـــك بعـــد واســـتملاحى

وتكسُّـــر في مقلتيـــك هـــو الـــذى
عطـــف الفـــؤاد عليـــك بعـــد جمـــاح

لعلمـــت أنـــك لا تمـــازح شـــاعراً
في ســـاعة ليســـت بحـــين مـــزاح

وقد شبَّهه ابن المعتز[٦] بالنرجس حين قال:

وســـنان قـــد طـــرق النعـــاس جفونـــه
فحكـــى بمقلتـــه ذبـــول الـــنرجس

وتتكرَّر في أبياته لفظة الضعيف:

قـــــد صـــــاد قلـــــبى قمـــــرُ
يســـــحر منـــــه النظـــــرُ

ضعيفـــــة أجفانـــــه
والقلـــــب منـــــه حجـــــر

كأنمـــــا ألحاظـــــه
مـــــن فعلـــــه تعتـــــذر

لم أر وجـــــهاً مثـــــل ذا
نجـــــا عليـــــه بشـــــر

---

(٦) علي أحمد أدونيس. ديوان الشعر العربي.

وهو الذي يقول[٧]:

عليــم بمــا تحــت العيــون مــن الهــوى
ســريع بكســر اللحــظ والقلــب جــازع
فيجـــرح أحشـــائى بعـــين مريضـــة
كمــا لان مــتن الســيف والحــدُّ قــاطع

وهذه العين المريضة تدعو إلى الهلاك على حد تعبير عمر بن أبي ربيعة[٨]:

ولكـــن دعــت للحـــين عـــين مريضـــة
فطاوعتـــها عمـــداً كـــأنك حـــالم
نظـــرت إليـــك بمقلـــتى يعفـــورة
نظـــر الربيـــب الشـــادن الوســـنان[٩]

كما قال أحدهم:

لقـــد فتكـــت عيـــون الغيـــد فينـــا
بيـــض مرهفـــاتٍ وهـــى ســـودُ
وتطعننـــا القـــدود إذا التقينـــا
بســـمرٌ مـــن أســـنَّتها النـــهودُ

وقد ورد في كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه لأبي الحسن الجرجاني قوله:

((وقد علمت أنَّ الشعراء قد تداولوا ذكر عيون الجآذر، ونواظر الغزلان حتى إنك لا تكاد تجد قصيدة ذات نسيب تخلو منه إلاَّ في النادر، ومتى جمعت ذلك ثم قرنت إليه قول امرئ القيس:

---

(٧) الأبشيهي. المستطرف من كل فن مستظرف. ص ٤٠٦.

(٨) ديوان عمر بن أبي ربيعة. ت ص ٢١٠.

(٩) المرجع نفسه. ص ٢٧١.

تصــــدُّ وتبــــدى عـــن أســـيل وتتَّقـــى
بنـــاظرةٍ مـــن وحـــش وجـــرةَ مُطفـــل

أو قابلته بقول عدي بن الرقاع:

وكأنـــها بـــين النســـاء أعارهـــا
عينيـــه أحـــور مـــن جـــآذر جاســـم

((رأيت إسـراع القلـب إلى هذيـن البيتـين، وتبيَّنـت قربـهما منـه والمعنـى واحـد وكلاهما خالٍ من الصنعة، بعيد عن البديع إلاَّ ما حسـن بـه مـن الاسـتعارة اللطيفـة التي كسته هذه البهجة)).

وأما ما تمَّم به عدي الوصف بقوله على إثر هذا البيت:

وســـنان ايقظـــه النعـــاس فرنَّقـــت
في عينـــه ســـنة وليـــس بنـــائم

((فقد زاد به على كلٍّ من تقدَّم، وسبق بفضله جميع من تأخَّر؛ ولو قلت اقتطع هذا المعنى فصار له، وحظَّر على الشعراء ادِّعاء الشرك فيه لم أرني بعدت عن الحق، ولا جانبت الصدق))[10].

الفتور:

ويعرِّف ابن الرومي[11] الفتور في العينين بأنه فتور غنج لا فتور نعاس:

يســـبى العقـــول بمقلـــة مكحولـــة
بفتـــور غنـــج لا فتـــور نعـــاس

---

(١٠) سيد قطب. النقد الأدبي (أصوله ومناهجه).

(١١) الدكتور عبد الرحمن الباب. في أدب وطب العيون. ص ٣٩.

قال الأصمعي[١٢]: ما وصف أحد العيون بمثل ما وصف به عدي الرقاع العاملي في قوله:

فكأنـــــها دون النســـــاء أعارهــــا
عينيـــه أحـــــور مـــــن جـــــآذر جاســـــم

وســــنان أقصــــده النعــــاس فرنَّقــــت
في عينــــــه سِــــــنة وليــــــس بنــــــائم

يصطــــاد يقظــــان الرجــــال حديثــــها
وتطـــير بهجتـــــها بــــــروح الحـــــالم

وجاء في القصيدة اليتيمة:

وتخالهــــــا وســـــــنى إذا نظــــــرت
أو مدنفــــــاً لَّمــــــا يفــــــق بعــــــد

بفتــــور عــــين مــــا بــــها رمــــد
وبــــــها تــــــداوى الأعــــــين الرمــــد

وغض البصر هو شأن المرأة الحرة التي تتميَّز بالخفر والحياء:

يقول خالد بن صفوان:

جيــداء في حــور وســنى علــى خفــر
شمَّــــاء في بــــهر مــــن خــــير نســــوان

وقال عبد الله بن المعتز: أنشدني أبو سهل إسماعيل بن علي لأبي الصواعق قال:

ومريــض طــرف ليــس يصــرف طرفــه
نحــــو المــــدى إلاّ رمــــاه بحتفــــه

ظـــبى لـــه نظـــر ضعيـــف كلَّمـــا
قصــد القــوى أتــى عليــه بضعفــه

---

(١٢) أدونيس. ديوان الشعر العربي. ص ٣٨٨.

وهـا هـو البحـتري[١٣] يفـدي بنفسـه ذلـك الغـزال الـذي تعلَّـق بـه قلبـه لجمـال لحظه وفتوره:

بـــــأبى شـــــادن تعلَّـــــق قلـــــبى
بجفـــون فواتـــر اللحـــظ مرضـــى
لســـت أنســـاه باديـــاً مـــن قريـــب
يتثنَّـــى تثـــنى الغصـــن غضـــاً
أيـــها العـــاتب الـــذى ليـــس يرضـــى
نم هنيئـــاً فلســـت أطعـــم غمضـــا

وقريب من هذا المعنى قوله:

تبســـم عـــن واضـــح ذى أثـــر
وتنظـــر مـــن فـــاتر ذى حـــور[١٤]
وممـــا يبـــدِّد لـــب الحليـــم
حســـن القـــوام وفـــتر النظـــر

ومن أجمل ما قاله في محبوبته علوة التي عاشت في مدينة حلب بعيدة عنه، بخيلة بالوصال يقترب منها فتبعد في الهوى.

وقد لعب الوشاة دورهم إلى جانب العذَّال في محاولات إضعاف العلاقة بينهما يقول[١٥]:

عـــرِّج علـــى حلـــب فحيِّـــى محلـــةً
مأنوســـة فيـــها لعلـــوة مـــنزل
لغريـــرة أدنـــو وتبعـــد في الهـــوى
وأجـــود بـــالود المصـــون وتبخـــل

---

(١٣) ديوان البحتري. ص ٢٣.

(١٤) ديوان البحتري. ص ٩٧.

(١٥) ديوان البحتري. ص ٢٥.

وعليلـــة الألحـــاظ ناعمـــة الصبـــا
غــــرى الوشـــاة بــــها ولجَّ العــــذل
وأعَـــــزُّ ثـــم أذلُّ ذلـــة عاشــــق
والحـــــب فيــــه تعــــزُّزُ وتذلُّــــل

ويشير الشاعر أحمد شوقي إلى ما فعلته الأعين الفاترات بألحاظها المريضة في القلوب الصحيحة بقوله[16]:

أداري العيـــون الفـــاترات الســـواجيا
وأشــكو إليــها كيــد إنســانها ليــا
قتلـــن ومنَّـــين القتيـــل بألســـن
مـــن الســحر يبدلــن المنايــا أمانيــا
وكلَّمــن بالألحــاظ مرضــى كليلــة
فكــانت صحاحــاً في القلــوب مواضيــا

كما بيَّن المتنبي قبله أنَّ هذه المرأة التي نظرت إليه قتلته بنظرها وليس تدري أنها باءت بإثم قتله، وأنَّ دمه في عنقها:

إنَّ الـــتى ســـفكت دمـــى بجفونــــها
لم تـــدر أنَّ دمـــى الـــذى تتقلَّــد[17]
أبرحــت يــا مــرض الجفــون بممــرض
مـــرض الطبيـــب لـــه وعيـــد العـــود

لقد أبرح به حبه لذلك الجفن المريض، إلى حد كبير تجاوزه إلى طبيبه الذي مرض، وعيد عوده رحمة له.

---

(١٦) الشوقيات. ت ص ١٤٢.

(١٧) ديوان المتنبي. ص ٢٣.

العيون الكحيلة الساحرة

في حياة المجتمع الجاهلي، في البوادي والحواضر تقريباً يوشك أن يكون مفهوم الجمال متمثّلاً بالمرأة، متركّزاً فيها. فالجاهلي لا يجد في حياته الضيّقة تعبيراً عن حسِّ الجمال إلاّ في هذا الجمال الأنثوي.

فالمرأة هي جِماع مظاهر الجمال وصوره؛ لذلك تكاد تكون محور اهتماماته النفسية، ووثباته العاطفية.

إنَّ الجمال إنَّما يخفق في إشراق وجهها، وطول جيدها واعتدال قامتها.

فحياة الشعراء الجاهليين تميَّزت بالإرهاف والحساسية؛ ولذلك ركّزوا على الوصف الذي يتمثَّل في بعض مظاهره بالتشبِّيه الحسِّي المستمدّ من الحياة التي كان يحياها الجاهليون، ورقة الحياة الداخلية التي كانت تنطوي عليها نفوسهم.

في الرقة يبدو الإحساس، وفي الخشونة تبدو الصورة التي تعكس هذا الإحساس.

فعند امرىء القيس[١٨] نلاحظ أنَّ الشاعر يفصِّل في وصف مفاتن محبوبته بوضوح وجرأة، وقصد. ونلمح إحساسه الدقيق بكلِّ ما في نظرة صاحبته من عطف وحنان وجمال وعمق، ونجد تأثره بذلك، واستجابته له، وتفاعله معه.

ولكننا حين ننشد التعبير عن هذه العين الجميلة الواسعة، وهذه النظرة العميقة النافذة، وهذا الحنان الذي يفيض عنها لا نجد عند الشاعر غير نظرة بقرة وحشية مطفل من وحش وجرة.

---

(١٨) د. شكري فيصل. تطوُّر الغزل بين الجاهلية والإسلام. ص ١٤١.

تصـــدُّ وتُبْـــدى عـــن أســـيل وتَّتقـــى
بنـــاظرةٍ مـــن وحـــش وجـــرةَ مُطفـــل

(المعنى: إذا أعرضت ظهر خدُّها الأسيل الممتد ، وجعلت بيني وبينها عيناً ناظرة تشبه عيون وحش وجرة ـ البيت وصف لجمال خدِّها وحسن عينيها اللتين تشبهان عيون الظباء. وجعل الظباء مُطفلة لأنَّ نظرتها إلى أولادها يخالطها الحب والعطف. فهي في تلك الحالة خيرٌ منها في أية حال أخرى).

ومثل ذلك فعل النابغة الذبياني حين عرض لنظرة صاحبته حيث عبَّر عن فيضٍ غامرٍ من الأحاسيس الموحية اليقظة التي وصلت بينه وبينها.

إنِّها تصبي الراهب الذي يجد فيها كلَّ شيءٍ ينشدُه في دنياه يرى فيها الرشد وإن لم يرشد[١٩]:

نظـــرت بمقلـــة شـــادن مـــتربِّبٍ
أحـــوى أحـــمِّ المقلتـــين مقلَّـــد

نظـــرت إليـــك بحاجـــةٍ لم تقضـــها
نظـــر الســـقيم إلى وجـــوه العـــوَّد

لـــو أنَّـــها عرضـــت لأشمـــط راهـــبٍ
يخشـــى الإلـــه صـــرورةٍ متعبِّـــدِ

لرنـــا لبهجتـــها وحســـن حديثـــها
ولخالـــه رشـــداً وإن لم يرشـــد

((الشادن: الظبي الذي استغنى عن أمه، المتربِّب: المربَّى: أحوى الشفتين: من الحوَّة وهي حمرة يعلوها سواد. أحمّ: شديد السواد. مقلَّد: طوِّق جيدة بالحلى.

---

(١٩) د. شكري فيصل. تطوُّر الغزل بين الجاهلية والإسلام. ص ١٤٤.

يقول الشاعر:

((إنَّها تنظر بعيني غزال، وإنَّها حوَّاء الشفتين، سوداء المقلتين، مقلَّدة الجيد)).

ويقول طرفة بن العبد[20]:

وفي الحيِّ أحوى ينفضُ المَرْدَ شادنٌ
مُظاهِرُ سِمْطَيْ لؤلؤ وَزبَرجدِ

ينفض: يعطو يمدُّ عنقه ليتناول ثمر الأراك. المرْدَ: ثمر الأراك. المُظاهِر: الذي لبس ثوباً فوق ثوب أو عقداً فوق عقد. السِمط: الخيط الذي نظمت فيه الجواهر.

- يشبِّه الظبي حين يمدُّ عنقه ليتناول ثمر الأراك، يعني أَنَّه طويل العنق، وقد تحلَّى هذا الحبيب بعقدين من لؤلؤ وزبرجد. شبَّهه بالظبي في ثلاثة أشياء في كحل العينين وحوَّة الشفتين وحسن الجيد)).

ويقول الأعشى[21]:

مبتلةٌ هيفاء رَوْدٌ شبابها
لها مقلتا ريم وأسود فاحم

ويُنسب إلى امرىء القيس قوله[22]:

لها مقلةٌ لو أَنَّها نظرت بها
إلى راهبٍ قد صام لله وابتهل
لأصبح مفتوناً معنَّى بحبِّها
كأن لم يصم لله يوماً ولم يُصل

---

(٢٠) د. شكري فيصل. تطوُّر الغزل بين الجاهلية والإسلام. ص ١٤٩.

(٢١) ديوان الأعشى. ص ٧٧.

(٢٢) ديوان امرىء القيس. ص ١٨٨.

إلى قوله:

حجازيـــة العينـــين مكّيَّـــة الحشـــا

عراقيـــة الأطـــراف، روميـــة الكفـــل

ويتغنَّـى الشـاعر الجاهلي سـويد بـن أبـي كـاهل اليشـكري بطـرف محبوبتـه الساجي الفاتر، وعينيها الكحلاوين الخاليتين من أي عيب[٢٣]:

تمنـــح المـــرآة وجـــهاً واضحـــاً

مثـل قـرن الشـمس في الصحـو ارتفـع

صـــافي اللـــون، وطرفـــاً ســـاجياً

أكحـــل العينـــين مـــا فيـــه قمـــع

أمَّا الشاعر كعب بن زهير فيصف محبوبته أيضاً بسواد العين وذبول الطرف في قصيدته المشهورة[٢٤]:

بـــانت ســـعاد فقلـــبي اليـــوم مبتـــول

متيّـــم عندهـــا لم يجـــز مكبـــول

ومـــا ســـعاد غـــداة البـــين إذ رحلـــوا

إلاَّ أغـــنُّ غضيـــض الطـــرف مكحـــول

أمَّا الشاعر الصوفي المنتجب العاني فيرى الليل صباحاً وينتابه شعور بالسعادة الخالصة؛ لأَنَّ المحبوب ابتسم له عن أسنان بيضاء كالأقاحي، فتدفَّق دم النشاط في وجهه الذي اصطبغ بياضه بالحمرة. ويحاول الشاعر العبث بقطف التفاح من الوجنتين، فيدافع الحبيب عن ثماره بنظرةٍ أفضل مما تثيره السيوف المشرفية،

---

(٢٣) الخطيب التبريزي: شرح اختيارات المفضل. ص ٨٧٠.

(٢٤) أبو الفرج الأصفهاني (الأغاني) ج ١٥. ص ١٤٧.

كما أنه يرسم صورتين حسِّيتين تمثِّلان المحبوب بنظرته الرشيقة، وقدِّه المشوق حيث يقول[٢٥]:

إذا روضــــــها كأنــــــه جنـــــان
ترتــــع فيــــه الحـــور والولــــدان
مـــن كــــل أحـــوى طرفـــه فتَّـــان
صـــاح ومـــن خمـــر الصبـــا نشـــوان
رنــــا طلــــى واهـــتز سمــــهريا[٢٦]
وبــــتُّ أرى ليلــــى بــــها صباحــــا
وثغــــره أبــــدى لــــى الأقاحــــا
فــــأنبتت وجنتــــه تفاحــــا
فحــــين رمــــت قطفــــها مزاحــــا
ســــلَّ علــــيَّ اللحــــظ مشــــرفيا

من الملاحظ أن الشعراء في العصر الجاهلي حدَّثونا عن مظاهر الجمال وعن وقعه على سمعهم وأبصارهم، وحواسهم ولكنَّهم لم يحدِّثونا عن أثر هذا الجمال في نفوسهم ولم يلتفتوا إلى وصف ما تركه من أصداء واهتزازات.

فالمعاني التي تعاقبوا عليها في الحديث عن مفاتن أحبتهم ووصفهم لها متقاربة تشترك في الصورة الخارجية. وإنَّ الكثرة الكثيرة منهم لم يجاوزوا الحديث عن محاسن الخِلقة إلى محاسن الخُلق، ولم يتعدُّوا جمال الصورة إلى جمال النفس.

وإذا تجاوزنا العصر الجاهلي إلى ما تلاه من عصور لاحظنا أنَّ الذوق العربي الأصيل بقي ينكر التكحُّل لتجميل العيون ويفتتن بالعين الكحلاء الطبيعية البعيدة عن الجمال المصطنع. وفي اللغة العربية أمثال شعبية عن الكحل منها:

---

(٢٥) د. أسعد علي. فن المنتجب العاني. ص ٢٦٩.

(٢٦) الطلى: ولد الظبية، السمهري: الرمح الطويل الصلب.

ـ أراد أن يكحِّلها فعماها.

ـ يسرق الكحل من العين.

ـ ليت كحلها يسدُ عينها.

ـ جبال الكحل تخليها المراود.

ولقد كان شاعرنا المتنبي معجباً بالجمال البدوي الطبيعي الذي لا يعرف التكلُّف والتطرية، حيث قال:

مــا أوجــه الحضــر المستحســنات بــه
كأوجــــه البدويــــات الرعــــابيب
حســـن الحضـــارة مجلـــوب بتطريـــةٍ
وفي البـــداوة حســـن غـــير مجلـــوب
أفــدى ظبــاء فــلاةٍ مــا عرفــن بــها
مضــغ الكــلام، ولا صبــغ الحواجيــب

ويقول البوصيري:

قـــل للذيـــن تكلفـــوا زىَ التُّقـــى
وتخـــيَّروا للـــدرس ألـــف مجلـــد
لا تحســـبوا كحـــل الجفـــون بزينـــة
إنَّ المـــها لم تكتحـــــل بـــــالإثمد

ويقول ابن هانىء الأندلسي:

فتكـــات لحظـــك أم ســـيوف أبيـــك
وكـــؤوس خمـــر أم مراشـــف فيـــك
حســـبوا التكحـــل في جفونـــك حليـــةً
تـــالله مـــا بأكفِّـــهم كحلـــوك

وقال الأبيوردي:

رمتنى بسـهم راشـه الكحـل بـالردى
وأقتـل ألحـاظ المـلاح كحيلـها

وقد ذمَّ أعرابي امرأته فقال:

ولا تستطيع الكحل من ضيق عينيها
فـإن عالجتـه صـار فـوق المحـاجر

ويقول الشاعر في العين الكحلاء:

كأنـهما مكحولتـان بـإثمد
ومـا بـهما غـير الملاحـة مـن كحـل

ولنستمع إلى أمير الشعراء شوقي[٢٧] وما فهمه من لغة العيون السود عندما تعطلت اللغة المسموعة:

وتعطَّلـت لغـة الكـلام وخـاطبت
عيـنيَّ في لغـة الهـوى عينـاك

وها هو في لبنان في بلدة (بكفية) يصيده سحر الجفون فيقول:

السـحر مـن سـود العـين لقيتـه
والبـابلى بلحظـهن سـقيته
الفـاترات ومـا فـترن رمايـة
بمسـدَّدٍ بـين الضلـوع مبيتـهُ
الناعسـات الموقظـاتى للـهوى
المغريـات بـه وكنـت سـليته

---

(٢٧) أحمد شوقي. الشوقيات. ت الجزء الثاني. ص ١٥٠.

الشـــــارعات الهـــدب أمثـــالَ القنــــا
يحيــــى الطعـــين بنظـــرة ويميتـــــه

وأغـــنَّ أكحـــلَ مـــن مـــها بكفيــــةٍ
علقـــت محـــــاجره دمـــــى وعلقتـــــه

قـد جـاء مـن سـحر الجفـون فصـادنى
وأتيـــت مـــن ســـحر البيـــان فصدتـــه

فمشـــــى إلـــــى وليــــس أولَ جــــؤذر
وقعــــت عليـــــه حبـــــائلى فقنصتــــه

العين رمز، ومصدر فتنة وسحر. اتخذ منها الفراعنة رمزاً لوحدة مصر القديمة واستمرار الحياة، ورمزاً دينياً للعودة إلى الحياة بعد الموت، وللصحة بعد المرض، حيث تقول الأسطورة إن عين أوروس اقتلعها (سات) ثم أعادها (طوط) كما كانوا يتخذونها تميمة تحمي من أمراض العين ثم من جميع الأمراض.

واتخذ المغنون العرب من العين نغماً شجياً يهتفون بها في الليل مكررة للآهات والمواويل.

وا تخذ منها عامة الشعب في معظم البلاد العربية تميمة باللون الأزرق لتحميهم من حسد العيون.

واتخذ منها الشعراء العرب أداة شعرية ورمزاً للمرأة كلِّها بشكل عام فخاطبوا المرأة بعينها.

فالعين الساحرة تفتن الرجال؛ فلا ينجو من شراكها إنسان. يخضع لها الملوك والحكام، تؤثِّر على ميزان العدل والقضاء إذ تستميل بسحرها قلوب القضاة.

يقول المستعين بالله:

عجبـــاً يـــهاب الليــــث حــــدَّ ســــنانى
وأهـــــاب ســــحر فواتــــر الأجفــــان

وقال هذيل الأشجعي في عبد الملك بن عمير قاضي الكوفة يغمز من قناته بشأن أحكامه المنحازة:

وكـــــان لهـــــا دلٌّ كحيلـــــة

فــأدلت بحســن الــدلِّ منــها وبــالكحل

ودخل رجل على الشعبي[٢٨] في مجلس القضاء، ومعه امرأته وهي من أجمل النساء فاختصما إليه، وأدلت المرأة بحجتها، وقرَّبت بيِّنتها فقال الشعبي للزوج: هل عندك من دفاع؟ فأنشأ يقول:

فُتِـــنَ الشـــعبيُّ لمـــا رفـــع الطـــرف إليـــها
فتنتـــه بـــدلال وبخطَّـــى حاجبيـــها
فقضـــى جـــوراً علـــى الخصـــم ولم يقـــض عليـــها
كيـــف لـــو أبصـــر منـــها نحرهـــا أو ســـاعديها
لصبـــا حتـــى تـــراه ســـاجداً بـــين يديـــها

فولع الناس بالأبيات وتناشدوها حتى اضطر الشعبي إلى الاستعفاء من القضاء.

والمعروف أن نداء الجنس يثير الشحنات الداخلية في النفوس، فتلهب المشاعر، وتستجيب الأنفس للجمال والحب، وتتبعثر موجات الفكر في العقول.

والسبب في ذلك كله يعود إلى العيون ونظراتها.

لذلك أوضح الإسلام العلاقة المباشرة بين الجنس ونظرات العيون (فأمر الرجال والنساء بغض البصر).

﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم﴾ (النور: ٢٩).

---

(٢٨) الراغب الأصفهاني. محاضرات الأدباء. ص ٨٧.

﴿ قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن﴾ (النور: ٣٠).

أمَّا الشاعر ابن الرومي فيحدثنا عن المغنّية (وحيد) التي سلبت فؤاده بجمالها المتكامل وحسنها الذي لا يجد له مثيلا:

يـــــا خليلــــــيَّ تيَّمتــــــنى وحيـــــدُ
ففــــؤادى بـــــها معنًــــى عميــــدُ

غـــادة زانـــها مـــن الغصـــن قـــدٌّ
ومــــن الظـــبى مقلتـــان وجيـــدُ

وحســان عرضــن لـــى قلــت مـــهلاً
عـــن وحيـــدٍ فحقٌّـــها التوحيـــدُ

حســنها في العيــون حســن وحيــدٌ
فلـــها في القلـــوب حـــبٌّ وحيـــدُ[٢٩]

قال المأمون في قينةٍ له[٣٠]:

لهـــا في لحظـــها لحظـــاتُ حتـــفٍ
تميـــت بـــها وتحيـــى مـــن تريـــدُ

فـــإن غضبـــت رأيـــت النـــاس قتلـــى
وإن ضحكــــت فــــأرواح تعـــودُ

وتســــبى العــــالمين بمقلتيــــها
كـــأَنَّ العـــالمين لهـــا عبيـــدُ

وقـد شـرب المتنـبي[٣١] كؤوسـاً مترعـة مـن خمـر ذلـك الطـرف السـاحر واللحظ الفاتر:

---

(٢٩) مصطفى طلاس. مختارات شعرية. ٥٤.

(٣٠) ابن عبد ربه. العقد الفريد. ج ٧. ص ٥٨.

(٣١) ديوان المتنبي. ج ٢. ص ٢٩٦.

وطـــرف إن ســـقى العشَّـــاق كأســـاً
بـــــها نقـــــصٌ ســــقانيها دهِاقـــــا
وخصـــــر تثبـــت الأبصـــــار فيـــــه
كـــأنَّ عليــــه مــــن حــــدق نطاقــــا

ذلك اللحظ القاتل يسفك الدماء؛ فتلك الشموس ماذهبن وجئن إلاَّ أجرَيْن بلحاظهنَّ دماء عشَّاقهن(٣٢):

أيــام فيــك شمــوسٌ مــا انبعثــن لنــا
إلاَّ انبعثـــن دمـــاً بـــاللحظ مســـفوكا

وفيه إشارة إلى قول أشجع:

فــــــإذا نظـــــرْتَ إلى محاســـــــنها
فلكـــــلِّ موضـــــع نظـــــرة قتـــــلُ

ومثله لأبي نواس:

يـــا نـــاظراً مـــا أقلعـــت لحظاتـــه
حتـــــى تشـــــحَّط بينـــــهنَّ قتيـــــلُ

وما أحسن ما أخذه بعضهم فقال:

وجفـــــــونٌ لـــــــك لا تطـــــــرف
إلاَّ عــــــــــــن قتيــــــــــــل
مــــا جميـــــلُ الصــــبر عنــــها
عنــــــد مثلــــــى بجميــــــل

(٣٢) ديوان المتنبي. ج٢. ص ٣٨٧.

ولعينيها وما تضمَّنتاه من السحر وأثارتاه من لوعة الحب ما يلقاه قلب المتنبي من الوجد. وما كان ممن يميل إلى اللهو والعشق ولكنَّ جفون عينيها فتَّانَةٌ لمن يراها. تدخل العشق في قلب من لم يعشق:

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقى
ولِلحبِّ ما لم يبقَ منى وما بقى
وما كنت ممن يدخل العشق قلبه
ولكنَّ من يبصرْ جفونك يعشق

ويرى الشاعر مسلم بن الوليد[٣٣] (صريع الغواني) أنَّ العين تسلب الألباب كالخمر، وتنطق بكلِّ معاني السحر، وألوان الفتنة:

إن كانت الخمر للألباب سالبةً
فإن عينيك تجرى في مجاريها
سِيَّان كأس من الصهباء أشربها
ونظرة منكَ عندى حين تصيبها
في مقتليك صفاتُ السحر ناطقةٌ
بلفظٍ واحدةٍ شتَّى معانيها

ويؤكِّدُ المتنبي[٣٤] الأثر القاتل للعيون الساحرة التي تفعل فعل السيوف.

فإذا بلغ سكون الحركة فيها نهايته مات من ينظر إليها من فرط حبها:

رأيْن التى للسحر في لحظاتها
سيوفٌ ظُباها من دمى أبداً حُمْرُ
تناهى سكون الحسن في حركاتها
فليس لراءٍ وجهها لم يمتْ عذرُ

---

(٣٣) ديوان مسلم بن الوليد. ص ٢١٦.

(٣٤) ديوان المتنبي. ص ١٢٤.

ويتساءلك أيُّ شيءٍ أصابه من هوى العيون السود والأشفار السود مثل الأحداق:

مـــا بنـــا مـــن هـــوى العيـــون اللواتـــي
لـــــونُ أشـــــفارهنَّ لـــــونُ الحِـــــداق

وهو لم يرَ كالألحاظ يوم مفارقته الذين أحبَّهم.

لقد أدرن عيوناً حائراتٍ متابعات لحظها ، متعبات بترادف دمعها كأنَّما وضعت أحداقها على الزئبق؛ فهي حائرة لا تسكن، ومتعبة لا تفتر[٣٥]:

ولم أرَ كالألحـــاظِ يـــوم رحيلـــهم
بعثْـن بكـلِّ القتـل مـن كـلِّ مشـفق

أدرْن عيونـــاً حـــائراتٍ كأَنَّـــها
مركَّبـــةٌ أحداقُـــها فـــوق زئبـــق

كما قال أحدهم:

لقـد فتكـتْ عيـون الغيـد فينـا
ببيـض مرهفـاتٍ وهـى سـودُ

وتطعننـا القـدود إذا التقينـا
بسـمرٌ مـن أسـنَّتها النـهود

ويقول المتنبي: كم قتيل قتل بعيون المها: أي المتشابهة لعيون المها ،. وليست تلك العيون التي قتلته كالعيون التي قتلتني وفتكت بي[٣٦]:

كـم قتيـل، كمـا قُتلـتُ شـهيدٍ
ببيـاض الطُّلـى وَوَرد الخـدود

---

(٣٥) ديوان المتنبي. ج ١. ص ٣٠٧.

(٣٦) ديوان المتنبي. ج ١. ص ٣١٣.

وعيـــــون المــــــها ، ولا كعيـــــــون

فتكـــــــتْ بـــــــالمتيَّم المعمـــــــود

وفي المعنى ذاته يقول الشاعر أحمد شوقي[٣٧]:

مـــن صـــوَّر السِّـــحر المبـــين عيونـــاً

وأحلَّــــه حدقــــاً لهــــا وجفونــــا؟

يـــا قلـــب إنَّ مـــن البواتـــر أعينـــاً

ســـــوداً وإن مـــــن الجـــــآذر عينـــــا

العين الساحرة تزداد حسناً بتزايد النظر إليها على حدِّ تعبير أبي نواس الذي يطلب الخمرة من عينها الساحرة:

وسـاحرةِ العينـين مـا تحسـن السـحرا

تواصلـــنى ســـراً وتقطعـــنى جـــهرا

وهـات اسـقنى مـن طرفـها خمـر طرفـها

فـإنِّى امـرؤٌ آليـت لا أشـرب الخمـرا

ودار بـها ظـبىٌ مـن الإنـس نـاعمٌ

تـرود عيـون الشّـرب جانبـه شَـزْرا

إذا مـا أدار الكـأس ثنَّـى بطرفـه

فعاطـاهم خمـراً وعاطـاهم سـحرا

ويقول الصلاح الصفدي:

يـا عـاذلى علـى عـين محجبـة

خـفْ سـحر ناظرهـا فالسـحر فيـه خفـى

وخـذ فـؤادى ودعـه نصـب مقلتـها

لا تـرم نفسـك بـين السـيف والهـدف

---

(٣٧) الشوقيات. ص ١٣٩.

ويقول أحمد شوقي[٣٨]:

لـــــك قـــــدٌّ ســـــجد البــــان لــــــه
وتمنَّـــــــت لـــــــو أقلَّتـــــــه الربـــــــى
ولحــــــاظ مــــــن معــــــانى ســــــحره
جمــــــع الجفــــــن ســــــهاماً وظبــــــى

ويسـدِّد أحـور المقلـة سـهام اللحـظ فيصمـي الفـؤاد كمـا يقـول لسـان الديـن الخطيب في موشحته المشهورة[٣٩]:

جــــادك الغيــــث إذا الغيــــث همــــى
يــــا زمــــان الوصــــل بــــالأندلس
أحــــور المقلــــة معســــول اللمــــى
جــــال في النفــــس مجــــال النفــــس
ســــدَّد الســــهم فــــأصمى إذ رمــــى
بفــــــؤادى نبلــــــة المفــــــترس

غـزال يسلُّ السيوف مـن لحظـة الأحـور فيمتلـك بحسـنه القلـوب الـتي لا تـهدأ من روعها.

يقول ابن زمرك[٤٠]:

بــــالله يــــا قامــــة القضيــــب
ومخجــــل الشــــمس والقمــــرْ
مــــن ملَّــــك الحســــن في القلــــوب
وأيَّــــد اللحــــظ بــــالحَوَرْ

---

(٣٨) الشوقيات. الجزء الأول. ص ١١٧.

(٣٩) د. جوت الركابي. الأد الأندلس. ص ٣٢٨.

(٤٠) د. جوت الركابي. المرجع نفسه. ص ٣٢٨.

كـــم شـــادن قـــاد لـــى الحتوفـــا
بربــــع القلـــــب قـــــد ســـــكنْ
يســـــلُّ مـــــن لحظـــــه ســــيوفاً
فــــالقلب بـــــالروع مـــــا ســــكن

ولا تختلف نظرة الشعراء الصوفيين إلى جمال المحبوب عن غيرهم من بقية الشعراء.

فلو نظرنا ـ على سبيل المثال ـ إلى حبيبة الشاعر الصوفي (المنتجب العاني) لرأيناها حبيبة دقيقة الخصر، مصقولة الترائب معتدلة القوام.

شعرها كالليل، وجهها كالبدر، أجفانها ناعسة ساحرة.

ومن نماذج شعره قوله في وصف المحبوب[41]:

وربَّ أهيــف ســاجى الطــرف معتــدل
أغـــنَّ أحـــوى دقيـــق الخصـــر واهيـــه
أعـــار أمَّ الطَّـــلا مـــن غُنـــج مقلتـــه
وعلَّـــم البـــان ضربـــاً مـــن تثنِّيـــه
فـــالنَرجسُ الغـــضُّ مـــن عينيـــه أنهبـــه
والـــورد بـــاللحظ مـــن خدَّيـــه أجنيـــه
ختمـــت سمعـــى وطـــرفي في هـــواه فلـــم
أنظـــر ســـواه ولا أصغـــى لواشـــيه

لقد ختم سمعه وبصره بحبِّ حبيبه؛ فما يسمع إلاَّ إياه، ولا يبصر إلاَّ به.

---

(41) ج. أسعد علي. فن المنتجب العاني. ص 161.

إنَّه ليرتفع بالفهم إلى المستوى الْعُلْوي من صبابات العشَّاق الصوفيين الذين يُكنُّون بالحبيب عن المطلق الأزلي الذي انبثق الكلُّ عنه ومنه.

وحينما لا ترى العين حدود المباشر يتيقَّظ الباطن فتتفتح داخل الإنسان عيون وعيون.

الصوفي إنسان يرى ما وراء الأشياء والحدود. ولهذا كانت عينه العين، وشعره الشعر.

فالحلاج مثلاً يتجاوز في الرؤيا حدود القلب والغزلان والتوراة والمصحف ودين الحب.

لقد صار هو هو:

يـــا جملـــة الكـــلِّ لســـت غـــيرى
فمـــــا اعتـــــذارى إذن إلـــــيَّ[٤٢]

أنـــا أهـــوى ومـــن أهـــوى أنـــا
نحـــن روحـــان حللنـــا بدنـــا

فـــإذا أبصرتـــنى أبصرتـــه
وإذا أبصرتـــه أبصرتنـــا

أمّا ابن الفارض فيخلو مع الحبيب، ويبيح لنفسه النظر إلى محاسن وجهه ليتعرَّف إلى ذاته بعد أن كان ضائعاً غير معروف[٤٣]:

ولقـــد خلـــوت مـــع الحبيـــب وبيننـــا
ســـرٌّ أرقُّ مـــن النســـيم إذا ســـرى

وأبـــاح طـــرفي نظـــرةً أمَّلتـــها
فغـــدوت معروفـــاً وكنـــت منكـــرا

فدهشـــت بـــين جمالـــه وجلالـــه
وغـــدا لســـان الحـــال عنِّـــي مخـــبرا

---

(٤٢) د. علي شلق. العين في الشعر العربي. ص ١٠٢.

(٤٣) ديوان ابن الفارض. ص ٩٩.

فــأدر لحــاظك في محاســن و جهــه

تلــق جميــع الحســن فيــه مصــوَّرا

العين الحوراء:

أمَّا العيون الدُّعج العربية الأصيلة التي تتصف بشدة السواد واتساعه مع سعة المقلة.

فقد حاول أبو حرزه جرير(٤٤) أن يوحي بسحرها حين قال:

لقــد تكتَّمــت الهــوى حتــى تــهَّيمنى

لا أســتطيع لهــذا الحــبِّ كِتمانــا

إنَّ العيــون الــتى في طرفــها حــورٌ

قتلننــا ثــم لم يحيــين قتلانــا

يصرعْــن ذا اللــبِّ حتــى لا حــراك بــه

وهــنَّ أضعــف خلــق الله إنســانا

ويقول الشاعر أبو هتَّان في المعنى ذاته(٤٥):

أخــو دنــفٍ رمتــه فأقصدتــه

ســهام مــن جفونــك لا تطيــش

فواتــك لا يقــال ســوى احــورار

بــهنَّ ولا ســوى الأهــداب ريــش

أصــبن فــؤاد مهجتــه فــأضحى

ســقيماً لا يمــوت ولا يعيــش

---

(٤٤) أدونيس. ديوان الشعر العربي. ص ٤١٦.

(٤٥) الأبشيهي. المستطرف من كلّ فن مستظرف. ص ٤٠٦.

العيون السود الطبيعية الجميلة هي التي انتشى العربي بلمحاتها، وتكحّلت عيناه بلحظاتها الساحرة.

لقد وضع العرب لهذه العيون كياناً جمالياً متعدّد المعاني والصفات اتخذوه مقياساً للجمال. وأهم تلك الصفات أوجزها المنذر الأكبر عندما أهدى إلى كسرى أنوشروان جاريةً، وكتب إليه في وصف عينيها يقول (إنَّها زَجَّاء وطفاء، كحلاء، دعجاء، حوراء، عيناء).

فالزجج هو في الحاجبين دقة وطول كما وصفه خالد بن صفوان في نونيته المسمَّاة (العروس).

صفــــرٌ تراتبـــــها زجٌ حواجبــــــها
ســـودٌ ذوائبـــها كالحـــالك القـــانى

والوطف: غزارة الأهداب مع طول. فهو أوطف. وهي وطفاء.

والعين الكحلاء: هي العين التي تبدو وكأنَّ الكحل فيها وهي من غير تكحُّل كعين الغزال.

يقول عبد الرحمن بن حسَّان وكان يشدو بغنائها ابن سريج:

وإنَّ عينيــــــها لعينــــــا جــــــؤذر
أهـــدب الأشـــفار مـــن حـــور البقـــر
تنكـــــــر الإثمـــــــد لا تعرفــــــه
غـــــير أن تســـــمع منـــــه بخـــــبر

والحور: شدة بياض المقلة مع شدة سوادها، والدعج في العينين شدة سواد الحدقة.

يقول خالد بن صفوان:

كحـــلاء في دعـــج عينـــاء في بـــرج

نجـــــلاء ﯿﮯ زجــــج تســـــلو وتقلانــــــى

ويقول العرب ﯿﮯ أوصاف العيون وملحقاتها:

ظمياء العيون: رقيقة الجفون.

عين سجراء: أي بيِّنة السجر وهي أن يخالط بياضها حمره.

عين شكلاء: أي بيِّنة الشكل ويقال: أشكل أي طويل شق العين.

عين سبلاء: العين الطويلة الهدب.

عين شهلاء: الشهلة حمرة ﯿﮯ سوادها.

البلج: نقاوة وتباعد ما بين الحاجبين.

قال المسدود[٤٦]:

بـــــــاحورار العـــــــين والدعـــــــج
واحمـــــــرار الخـــــــدِّ ﯿﮯ الضَّـــــرج
وبتفـــــــاح الخـــــــدود ومـــــــا
ضـــــمَّ مـــــن مســـــكٍ ومـــــن أرج
كـــن رقيـــق القلـــب إنَّـــك مـــن
قتـــــل مـــــن يـــــهواك ﯿﮯ حـــــرج

---

(٤٦) ابن عبد ربه. العقد الفريد. ج ٧. ص ٣٩.

لقد نفذت سهام العين إلى قلب المتنبي فجرحته جرحاً يشبه عينيها في السعة.

وربما كان الرمح لا يصل إليه بسبب وجود الدرع. ولكننا لدرع لم تحصِّنه من نظرتها:

مثَّلتِ عَيْنَك في حشاى جراحةً
فتشابها كلتاهما نجلاء[٤٧]

نفدت عليَّ السابرى وربما
تندقُّ فيه الصعدة السمراء

أما عمر بن أبي ربيعة الذي قضى عمره مبهوراً بألوان الحسن فيقول:

ولن أنسى بخيف منى
تسارق زينب النظر[٤٨]

إليَّ بمقلتى ريم
ترى في طرفه حورا

دخل بعض الأعراب على ثعلب النحوي فقال[٤٩]:

أنشدني يا إمام الأدب أرقَّ شعر قالته العرب

فقال لا أجد أرق من قول جرير:

إنَّ العيون التى في طرفها حور
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللبِّ حتى لا حَرَاكَ به
وهنَّ أضعف خلق الله إنسانا

---

(٤٧) ديوان المتنبي. ج ١. ص ١٤.

(٤٨) ديوان عمر بن أبي ربيعة. ص ١٦٧.

(٤٩) بهاء الدين العاملي. الكشكول. ج ٢. ص ٣١٨.

فقال الأعرابي هذا شعر قد لاكته السَّفِلة بألسنتها هاتِ غيره.

فقال ثعلب: أفدنا مما عندك يا أخا العرب.

فقال الأعرابي: قول مسلم صريع الغواني:

نبـــارزُ أقـــران الوغـــى فنصدُّهـــم
ويغلبنـــا في السـلم لحـظ الكواعـب
وليسـت سـهام الحـرب تُفـنى نفوسـنا
ولكـن سـهامٌ فوِّقـت فـوق الحواجـب

فقال ثعلب لحضّار مجلسه:

اكتبوها على الحناجر؟

ولو بالخناجر؟

ومن طريف ما قاله الشاعر تميم بن المعز متغزلاً[٥٠]:

أبـــاح لمقلـــتى السـهرا
وجـــار علـــيَّ واقتـــدرا
غـــزال لـــو جـــرى نفســى
عليـــه لـــذاب وانفطـــرا
ولكـــن عينـــه حشـــدت
علـــيَّ الغنـــج والحـــورا
ومـــن أودى بـــه قمـــر
فكيـــف يعـــاتب القمـــرا؟

---

(٥٠) زهر الآداب. ج ٢. ص ١٨٦.

ويروى أن الخليفة عبد المؤمن بن علي أمير دولة الموحدين في المغرب كان يسير يوماً بصحبة وزيره ابن عطيه في طرق مراكش فأطلّت جارية حسناء؛ فقال الخليفة مرتجلاً[٥١].

قدَّت فؤادي من الشباك إذ نظرت.

فأجازه الوزير: حوراء ترنو إلى العشّاق بالمقل.

فقال عبد المؤمن: كأنما لحظها في قلب عاشقها.

فقال الوزير: سيف المؤيد عبد المؤمن بن علي.

ويتحدث الشاعر ابن الساعاتي عن علة الحدق وصحتها[٥٢]:

لا يغرنك بالسيف المضاء
فالظبا ما نظرت منه الظباء
حدق صحتها علتها
ربما كان من الداء الدواء

ويصف ما تفعله سهام اللحظ:

وأحور من عينيه هاروت بابل
رمى فاتقينا نبله بالمقاتل
يدافع عن ألحاظه بجفونه
ولم أر جفناً صال دون المناصل

العيون الزرقاء:

---

(٥١) أحمد توفيق المدني. تاريخ إفريقيا.

(٥٢) د. عمر موسى باشا أدب الدول المتتابعة. ص ٥٤١.

عـرف العـرب اللـون الأزرق في عيـون الجـواري والقيـان منـذ عـهد الجاهليـة عن طريق قوافل التجار التي كانت تحمل الرقيق من بلاد فارس وغيرها.

كما عرف العرب القدامى اللون الأزرق في عيون الغزاة الروم؛ ولذلك لم تأت أوصافها في شعر التراث إلاّ نادراً.

كره العرب اللون الأزرق، والعيون الزرقاء فاتهموا أصحابها بالكذب واللؤم والشر.

وكـان اللـون الأزرق في العيون علامـة فارقـة للأعجمـي الرومـي وكـل أعجمـي حتى قيل عن شديد العداوة (إنه عدو أزرق)[٥٣].

ويقال في العدو (هو أزرق العين، وإن لم يكن أزرق).

هجا بشار بن برد العباس بن محمد العباسي أخا الخليفة أبا جعفر المنصور بقولـه:

وللبخيـــــل علــــــى أموالـــــه علــــــل

زرق العيـــــون عليــــــها أوجـــــه ســــــود

شبَّه بشار العلل بحراس يتخذها البخيل على ماله، وتخيل لها أعيناً زرقاً ووجوهاً سودا، كي تكتمل فيه الدمامة.

وهـذا المعنـى أخذه بشار من قوله تعالى في سورة طـه أيـة /١٠٠/ ﴿ يـوم ينفـخ في الصور، ونحشر المجرمين زرقا﴾.

في تفسير الجلالين: معناه أن تكون عيونهم زرقاً ووجوههم سوداء؛ لأن وجوه المجرمين تسودُّ يوم القيامة.

ولم تخل أشعار العرب من وصم العين الزرقاء بالقباحة والحسد. من ذلك قول بشار:

---

(٥٣) ابن عبد ربه. العقد الفريد. ج ٣. ص ٥٦.

تراخـــت في النعيـــم فلـــم ينلـــها
حواســـد أعـــين الـــزرق القبـــاح

ويتشاءم ابن الرومي من العيون الزرق فيقول في هجاء ابن طالب الكاتب:

أزيـــرق مشـــؤوم، أحيمـــر قاشـــر
لأصحابـه نحـس علـى القـوم ثـاقب
وهـل يتمـارى النـاس في شـوم كـاتب
لعينـه لـون السـيف والسـيف قـابض

وقال ذو الرمة في ذم العيون الزرق:

زرق العيـــون إذا جاورتـــهم ســـرقوا
مـا يسـرق العبـد أو نابأتـهم كذبـوا

وكـان التسـري بـالجميلات مـن روميـات وفارسـيات لحسـن قوامـهن، وبيـاض بشرتهن قد بدأت منذ الفتوحات الإسلامية.

قال عمر بن أبي ربيعة:

ســـحرتنى الزرقـــاء مـــن مـــارون
إنمـــا الســـحر عنـــد زرق العيـــون
ســـحرتنى بجيدهـــا وشـــتيت(٥٤)
وبوجـــه ذى بهجـــة مســـنون

فاللون المستحب عند العرب كـان لـدى المـرأة ذات البشـرة البيضـاء الرقيقـة أو البيضـاء الـتي يضـرب لونـها بـالغداة إلى الحمـرة وبالعشـية إلى الصفـرة كما وصفها ذو الرمة:

بيضـاء في دعـج كحـلاء في بـرج

---

(٥٤) الجيد: العنق. الشتيت: الثغر الأفلج.

كأنـــها فضـــة قـــد مســـها ذهـــب

وجاء قوله تعالى:

﴿ وعندهم قاصرات الطرف عين ﴾ أي حسان الأعين لا ينظرن إلاَّ إلى أزواجهن.

﴿ كأنهن بيض مكنون﴾ [الصافات: ٤٨-٤٩].

وجـاء في تفسـيرها (كأنـهن في اللـون الأبيـض بيـض للنعـام مسـتور بريـش لا يصل إليه غبار. ولونه البياض في صفرة.

فاللون الأحمر أحبه العرب. وجاء قوله تعالى:

﴿ إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسرُّ الناظرين ﴾ (البقرة).

ثـم أخـذت العيـون الـزرق[٥٥] تتكـاثر بـين مشـاهير الـعرب. فمـروان بـن الحكـم والـي المدينـة المنـورة كـان أزرق العينـين وسميـت باسمـه عـين الزرقـاء وهي عين الماء التي تقع في جنوب غرب المدينة المنورة.

وفي العصر العباسي كان الكثير من الخلفاء من أمهات روميات وتركيات.

وكثيرات منهن كن زرق العيون.

ونلاحظ أن الشعراء الذين دافعوا عن زرقة العيون في ذلك الوقت.

شبهوا زرقة العين بزرقة عتاق الطير، أو زرقة حد السيف لا بزرقة السماء كما درج على ذلك شعراء الغرب، وشعراؤنا المعاصرون لأنَّ السماء تتراءى لهم غالباً صافية زرقاء عبر الدهور.

---

(٥٥) الدكتور عبد الرحمن البابا - في أدب وطب العيون - ص ٣٢.

وفي الصحارى يطغى في الميزان جمال الغيوم في السماء على جمال الزراقة والصفاء.

يقول الوأواء الدمشقي[٥٦]:

يــا مــن هــو المــاء في تكويــن خلقتــه
ومـــن هـــو الخمـــر في أفعـــال مقلتـــه
ومـن بزرقــة سـيف اللحــظ طــلَّ دمــى
والســـيف مـــا فخـــره إلاَّ بزرقتـــه
علَّمــت إنســان عيــنى أن يعــوم فقــد
جـــادت ســـباحته في بحـــر دمعتـــه

وفي حديث ذكره أبو الفرج الأصفهاني في كتاب النساء قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((تزوجوا الزرق؛ فإنَّ فيهن يمناً)).

وقال معاوية لصحَّار العبدي: (إنك لأزرق).

فقال له صحار: (والبازي أزرق).

أخذه الشاعر محمد بن وهب البصري البغدادي فقال:

أحبـــك إن قـــالوا بعينـــك زرقـــة
كـــذاك عتـــاق الطـــير زرق عيونـــها

ولم يكن الشعر العربي القديم وحده حافلاً بذم العيون الزرقاء فقد لاحقتهم الأحاديث الموضوعة، والأمثال الشعبية.

---

(٥٦) الثعالبي. يتيمة الدهر. ج ١. ص ٢٨٨.

ففي حديث من غير سند رواه الديلمي يقول: (إياك والأشقر الأزرق فإنه من قرنه إلى قدمه مكر).

وفي أيامنا يقولون في الأمثال الشعبية: (إياك والعيون الزرق والأسنان الفرق).

لكنَّ كراهية العيون الملوَّنة التي سادت في عصور الجاهلية والإسلام تحوَّلت إلى نقيض ما كانت عليه منذ بداية العصر الحديث. ومع أن وصف أعضاء المرأة الحسناء تضاءل في الشعر الحديث مع اتساع أفق الشعراء في تأملاتهم وأفكارهم وتأثرهم بالرومانسية الغربية والمذاهب الشعرية الكثيرة. فإنَّ حضور العيون الخضر الزرق أصبح واضحاً تزخر به روائع شعر الغزل الحديث.

يقول أمين نخلة في العيون الزرق[٥٧]:

غمّس الريشة في البحر الذي
صوّر العينين كاللجّ الرقيق
فتح الماضي لعينيّ كوة
فأطلّ أعذب الحب العتيق

وفي العيون الزرقاء الواسعة التي تحاكي بزرقتها لون السماء والبحر يقول الشاعر بدوي الجبل:

في مقلتيك سماوات يهدهدها
من أشقر النور أصفاه وأحلاه
ورنوة لك راح النجم يرشفها
حتى ترنح سكر في محياه
أطلّ خلف الجفون الوطف موطنه
بعد الفراق فحيّاه وفدّاه
قلبي وللشقرة المغناج لهفته
ليت الحنين الذي أضناه أفناه
مدلّه فيك ما ليل ونجمته
مولّه فيك ما قيس وليلاه
يضيع عني وسيم من كواكبها
فحين أرنو إلى عينيك ألقاه

توحي العين بالبحر عمقاً واتساعاً وحركة وارتحالاً. وعالم العيون عالم يختصر الطبيعة وكلّما خاف الشاعر نزار قباني من الضياع أو الدوار سعى إلى أن يرسو في مرفأ عينيها الأزرق[٥٨].

---

(٥٧) أمين نخلة. الديوان الجديد. ص ١٢٨.

في مرفأ عينيك الأزرق

أركض كالطفل على الصخر

أستنشق رائحة البحر

وأعود كعصفور مرهق

في مرفأ عينيك الأزرق

تتكلم في الليل الأحجار

في دفتر عينيك المغلق

من خبَّأ آلاف الأشعار

لو أني... لو أني بحار

لو أحد يمنحني زورق

أرسيت قلوعي كل مساء

في مرفأ عينيك الأزرق

الموج الأزرق في عينيك

يجرجيني نحو الأعمق

أزرق

أزرق

(٥٨) مجلة الموقف الأدبي. العدد ٨٥٧. عام ١٩٧٥. ص ٣٨.

لا شيء سوى اللون الأزرق

وأنا ما عندي تجربة

في الحب ولا عندي زورق

اللون في العينين أغرق لون البحر. غير أن العيون بصفائها تقف فوق الزمن وربما قبل الزمن فهي نوع من الأزل:

أنـــا عينـــاك أنـــا كتبتـــهما

قبـــل بـــدء البـــدء قبـــل الأعصـــر

أنـــا بعـــثرت نجومـــى فيـــهما

زمـــر تســـألنى عـــن زمـــر

مـــا المصـــابيح الـــتى تغلـــى علـــى

فتحـــتى عينيـــك إلاّ فكـــرى

وتنفتح أمامنا أكوان تستجيب لها بصيرتنا كلما رأينا عينين زرقاوين بمثل هذا الجمال الذي رحل إليه الشاعر نزار قباني في (القصيدة البحرية).

وينسحق نزار قباني أمام قدره الضائع الفار من عينيها ليقف مع ماضيه وحاضره ومستقبله لحظة واحدة.

إنـــى لأبحـــث في عينيـــك عـــن قـــدرى

وعـــن وجـــودى ولكـــن لا أرى أحـــداً

ويستخدم للعيون مواصفات الفيروز ونيسان والليل والزنبق[٥٩]:

وفي مرفأ عينيك الأزرق

---

(٥٩) مطانيوس ميخائيل. دراسات في الشعر العربي الحديث. ص ١٤٩-١٥٨.

يتساقط ثلج في تموز

ومراكب حبلى بالفيروز

أغرقت البحر ولم تغرق

ويقول في قصيدة أخرى:

عيناك نيسانان... كيف أنا

أغتال في عينيك نيسانا؟

ومن الملاحظ أن رؤية اللون انتقلت من النظر إليه في نفسه إلى النظر إليه في أثره كمنبِّه للنفس الإنسانية.

إن اللون دراسة ومفهوماً وطبيعة - تطوَّر تطوراً واسعاً فإذا كان التقليديون ينظرون إلى اللون نظرة مادية في ذاته على أساس أنه حلية ترتبط بالشكل، فإن الأدباء في العصر الحديث أخذوا يرونه على أساس أنه قيمة تعبيرية ترتبط بمعنى العمل ومحتواه، وبتجربة صاحبه الوجدانية. أو هو على حد تعبير (خليل مطران) ((صورة الوجدان))[٦٠]:

فالأخضر: عنوان انبثاق الحياة والصحة ويرمز إلى الكون والطبيعة والربيع والشباب. والأزرق يشير إلى الهدوء والسكينة والامتداد العام الذي لا يعرف الحدود.

يقول الدكتور إبراهيم ناجي:

أزرق العين هادئٌ هدأة البـ

ـحر بعيد الرضى بعيد القرار

---

(٦٠) د. نعيم اليافي. تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث. ص ٢٢٤.

أما اللونان الأبيض والأسود فقد أكثر من استعمالهما الشعراء وقابلوا بينهما باستمرار؛ فالأبيض يرمز إلى الصفاء والغبطة والنقاء والعفاف والسلم، والأسود عكس ذلك يوحي بالحزن والخطيئة والظلام والقساوة والصلادة.

العين الخضراء:

أصبحت العين في نظر الشعراء عالماً كبيراً بألوانه المختلفة تنسكب فيه زرقة السماء والبحار، أو خضرة المروج والكروم ويذوب فيه سواد الليل كحلاً، يناجيه القمر والنجوم، وتكمن وراءه الغوامض والأسرار.

العيون الخضراء يصفها الشاعر بدر شاكر السيَّاب بقوله:

عيناك غابتا نخيلٍ ساعة السَّحر

أو شرفتان راح ينأى عنهما القمرْ

عيناك حين تبسمان تورق الكرومْ

وترقص الأضواءُ كالأقمار في نَهَرْ

إنَّها ذات مدى زيتي؛ بحيرة خضراء، عريشة كسلى تختصر الطبيعة، وتحتويها عطاءً ومشاوير، وصيفاً خيِّراً خصب المواسم.

المساء هادىءٌ؛ لكن فيه شلالاً، العينان هادئتان لكن فيهما ألوف الصور تنزلق عليهما، وبريق العينين يخطف انتباه الشاعر نزار قباني إلى ما فيهما من انفتاحات على آفاق مديدة:

المســـــاء شـــــلاَّلُ فـــــيروز ثــــرى
وبعينيـــــــك ألـــــــوف الصـــــــور[٦١]
وأنـــــا متنقِّـــــل بينــــــهما ضـــــوء
عينيـــــــك وضـــــــوء القمـــــــر
وبعينيـــــــك مرايـــــــا اشـــــــتعلتْ
وبحــــــارٌ وُلِــــــدتْ مـــــن أبحــــــر
وانفتاحــــاتٌ علــــى صحــــو علــــى
جـــــزر ليســـــت ببـــــال الجُـــــزر

اخضرار عينيها هو سرُّ اللون والضوء في الشرق والغرب[٦٢]:

تُـــــرى يـــــا جميلـــــة لـــــولاك
هـــــــل ضـــــــجَّ بـــــــالورد دربُ
ولـــــــولا اخضـــــــرارٌ بعينيـــــك
ثـــــــرُّ المواعيـــــــد رحـــــــبُ
أيســـــــبح بـــــــالضوء شـــــــرقٌ
أيغمـــــــر بـــــــاللون غـــــــربُ

الخضــرة الجميلــة نراهــا في العيــون الــتي وصفــها الشــاعر راشــد حســين في قصيدته (القدس في عينين):

لـــــــون عينيـــــــك نخيـــــــل
لـــــــون عينيـــــــــك دوال
لـــــون عينيـــــك كحِّـــــبى القـــــدس
غـــــــال ألـــــــف غـــــــال

---

(٦١) مجلة اللوتس. العدد ٦٦/٦٥. عام ١٩٨٨. ص ١٥٤.

(٦٢) نزار قباني. طفولة نهد. ص ٥٢.

وجريح لون عينيك كشعري

وجميل مثل حبي

وطويل كاعتقالي

لون عينيك أبي يزرع رماناً وتيناً

ويقول: ازرع، فما تزرعه يُضحي بنينا

ويغنِّي يا ليالي يا ليالي

لون عينيك صلاح الدين من دون رجالِ

وعذابٌ لون عينيك لأشباه الرجال

لون عينيك حصادْ

لون عينيك بيادرْ

لون عينيك كفاحْ. وطني فيه مسافر

وصبورٌ لون عينيك كأمي

وكريم كسهولي، وأبيٌّ كجبالي

لون عينيك حمامٌ، ونسورٌ في نضالي

سعيد عقل زعيم المدرسة الجمالية في الشعر العربي يطالب أن يكون الجمال مطلقاً وغير محدود.

حلـــــمُ أيِّ الجـــــن؟ يـــــا أغنيـــــةً

عـــاش مـــن وعـــد بـــها ســـحر الوتـــر[٦٣]

والمرأة عنده رمز لجمال الوجود وعبقريته في الخلق والإبداع. إنَّه يشهق لاتِّساع عينيها[٦٤]، وينقله الفتون والسحر من سنى الزنبق إلى ذراعيها ثم إلى أراجيح الهوى ومروج جفونها الخضر.

يكون أن اشهق

لكبر عينيها

ومن سنى الزنبق

إلى ذراعيها

ينقلني الفتون

ينقلني إلى الغوى

إلى أراجيح الهوى

إلى المروج الخضر في الجفون

---

(٦٣) رندلى. ص ١٢.

(٦٤) مطانيوس ميخائيل. دراسات في الشعر العربي الحديث. ص ١٤٩،

الفصل الرابع:

- معايب العين
- العين الحاسدة.
- العين العمياء

معايب العين[1]

الحَوَص: ضيق العينين.

الخَوَص: غئورها مع الضيق وغِلَظُ الجفن الأعلى.

الشَتَر: انقلاب الجفن.

العَمَش: أن تسيل العين وترمص.

الكَمَش: ألاَّ يكاد يُبصر.

الغَطَش: شبه العمش.

الجهر: ألاَّ يبصر نهاراً.

العشا: ألاَّ يبصر ليلاً.

الخَزَر: أن ينظر بمؤخرة عينه. والخُزْرة: انقلاب الحدقة نحو اللِّحاظ.

الغَضَن: أن يكسر عينه حتى تتغضَّنَ جفونه.

القَبَل: أن يكون كأنَّه ينظر إلى أنفه وهو أهون من الحول.

الخّفَش: صِغر العينين وضعف البصر.

الجفَن: فسادٌ في العين يضيق له الجفَنْ.

---

(١) أبو منصور الثعالبي. فقه اللغة وسرُّ العربية. ص ١٢١-١٢٢.

الدَّوش: ضيق العين وفساد البصر.

البخق: أن يذهب البصر والعين منفتحة.

الكَمَه: أن يولد الإنسان أعمى.

الشُّطور: أن تراه ينظر إليك وهو ينظر إلى غيرك.

الشَّوَص: أن ينظر بإحدى عينيه ويُميل وجهه في شق العين التي يريد أن ينظر بها.

الجحوظ: خروج المقلة وظهورها من الحجاج.

البَخَص: أن يكون فوق العينين أو تحتهما لحم ناتىء.

جاء في لسان العرب (الأحول الذي حولت عيناه جميعاً).

أمَّا إذا أقبلت إحدى الحدقتين على الأخرى فهو أقبل، والمرأة قبلاء.

ويقالُ أقبل عينه، أي صيَّرها قبلاء.

إذا أقبل سواده على الأنف فهو أقبل (حول متقارب) فإذا أقبل على الصدغين فهو أخزر (حول متباعد).

وصاحب العين الحولاء يخدع الرقيب بنظره، فلقد كان أبو العيناء الشاعر الأحول يجد في حول عينيه ما يحمد الله عليه:

حمـــــدت إلهــــى إذ بلانـــــى بحبِّـــــها
على حَـوَل يغــنى عــن النظــر الشــزر

نظـــرتُ إليـــها والرقيـــب يخـــالنى
نظــرت إليــه فاســترحت مــن الغــدر

ويقول مزاحم العقيلي[٢]:

أفي كلِّ يوم أنت من لاعج الهوى
إلى الشُمِّ من أعلام ميلاءَ ناظرُ
بعمشاءَ من طول البكاء كأنَّما
بها رمدٌ أو طرفها متخازر
تمنَّى المنى حتى إذا ملَّت المنى
جرى واكفٌ من دمعها متبادرُ

وقد تصاب العين بالعشى من كثرة البكاء.

يقول أبو بكر محمد بن زُهر الإشبيلي[٣]:

ما لعينى عشيتْ بالنظر
أنكرت بعدك ضوء القمر
وإذا ما شئت فاسمع خبرى
عشيت عيناى من طول البكا
وبكى بعضى على بعضى معى

وأنشد الثعالبي في فقه اللغة:

أشتهى في الطفلة القبلا
لا كثيراً يشبه الحوَلا

وثمة قصة تُروى عن تطيُّر ابن الرومي. من ذلك أنَّه حضر مهرجاناً شهدته قينتان إحداهنَّ حولاء والثانية عجوز في عينها نُكتة. فتطيَّر من ذلك. وحدث أن سقطت ابنة صاحب المهرجان عن السطح. فعزا ذلك إلى المغنِّيتين:

---

(٢) ديوان الشعر العربي، أدونيس، ص ٤٦٠.

(٣) د. جودت الركابي. في الأدب الأندلسي. ص ٣٢٢.

أيُّـــها المختفـــى بحــــول وعـــــور
أيــن كــانت منـــك الوجـــوه الحســـانُ
فتحُـــك المــــهرجان بــــالحول والعـــو
ر أرانـــا مــــا أعقـــــب المـــــهرجانُ
كـــان مـــن ذلـــك فقـــدُك ابنتـــك
الحـــرَّة مصبوغـــة بــــها الأجفـــانُ

ولقد كان أعوران يمشيان معاً فقال أحدهما :

أياســــــره فيفصلنــــــا المعــــرِّى
أيامُنـــــه فيجمعنـــــا جريــــــر
ونذهـــــب بيننـــــا رجــــلٌ ضريـــرٌ
ونرجِـــــع بيننـــــا رجــــلٌ بصــــير

ورُوي عن أبي حاتم قال:

رمي رجل أعور بنشَّابه، فأصابت عينه الصحيحة قال (أمسينا وأمسى الملك لله).

كما رُوي عن الزبير بن بكار قال:

جاءت امرأةٌ إلى الزبير تستعدي على زوجها، وتزعم أنَّه يصيب جاريتها. فأمر به فأحضر، فسأله عمَّا ادَّعت؟

فقال هي سوداء، وجاريتها سوداء، وفي بصري ضعف، ويضرب الله برواقه. فأنا آخذٌ من دنا مني.

ويرى المتنبي أنَّ العين قد تنكر ضوء الشمس من رمدٍ بها أصابها:

قد تنكر العينُ ضوءَ الشمس من رمدٍ
وينكر الفم طعم الماء من سقم

وإذا كان ضيق العين يعدُّ من المعايب، فإن الشعراء في عصور الدول المتتابعة تغزَّلوا بالأتراك والأكراد. فهذا فتيان الشاغوري يتحدَّث عن حبيب ما أبى باللحظ سفك دمه[٤]:

افدى الذى ما أبى باللحظ سفك دمى
لكن متى طلبت العطف منه أبى

ظبيٌ من الترك أصمتنى لواحظه
وأسهم الترك إن أصمتْ فلا عجبا

ويتحدَّث الشاعر ابن عنين صغر العينين، وضيق المقل وهذا المعنى جديد في شعرنا العربي. وقد ألمَّ به في مطلع قصائده:

لا تعرضِنَّ لضيق المقل
فتبيت من أمنٍ على وجلِ

واترك ظباء الترك سانحة
لا تعترض لحبائلِ الأجلِ

ويُلاحظ أن بعض الشعراء الذين شهدوا الحروب الصليبية وتنقَّلوا في الثغور المحتلة اتجهوا وجهة جديدة لم نعرفها من قبل في الشعر العربي.

حتى إنَّ شاعراً كابن القيسراني قصر طائفة من أجمل شعره على التحدُّث عن الفرنجيات. وسمَّى قصائده المذكورة (النفريات).

---

(٤) ديوان ابن عنين. ص ٣٤.

العين الحاسدة

عرَّفها ابن خلدون بأَنَّها:

((تأثير نفس المعيان عندما يستحسن بعينه مدركاً من الذوات أو الأحوال، أو يفرط في استحسانه، أو ينشأ عن ذلك حينئذٍ أنَّه يروم معه سلب ذلك الشيء عما اتَّصف به))(٥).

وقيل هي نظر باستحباب مشوب بحسد، من خبيث الطبع يحصل للمنظور منه ضرر. أمَّا الحسد فهو تمنِّي زوال النعمة عن الآخرين، أو تمنِّي عدم حصولها، وكلّ عائن حاسداً، وليس كلُّ حاسد عائناً.

وقد ربط الله تعالى ما بين الحسد والسحر عندما أمرنا أن نتعوَّذ منهما بقوله تعالى: ﴿ ومن شرِّ النفَّاثات في العقد، ومن شرِّ حاسدٍ إذا حسد﴾.

فالنفَّاثات: هنَّ السواحر اللواتي يعقدن في سحرهن وينفثن في عقدهن.

واقتران الحسد بالسحر في هذه الآية يشير إلى وجود علاقة بينهما. ولعلَّ هذه العلاقة هي التأثير الخفي الذي يكون من الساحر بالسحر، ومن الحاسد بالنظر مع اشتراكهما في عموم الضرر.

وقد أشار القرآن الكريم إلى تأثير العين بقوله تعالى:

﴿ وإن يكادُ الذين كفروا ليُزلقونك بأبصارهم لمَّا سمعوا الذكر، ويقولون إنَّه لمجنون ﴾ القلم: ٥١].

---

(٥) المقدمة. /٥٥٦/.

تقول العرب رجلٌ مَعَين ومعيون إذا أُخِذ بالعين. وتقول العرب[6]:

(إن العين تسرع بالإبل إلى أوصامها ، وبالرجال إلى أسقامها).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لو سبق القدر شيءٌ لسبقته العين. إنَّ العين حق).

وفي الحديث عن جابر قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنَّ العين تدخل الرجل القبر، وتدخل الجمل القدر) رواه أبو نعيم.

والجاحظ[7] لا يُنكر أن ينفصل من العين الصائبة إلى الشيء المستحسن أجزاء لطيفة تتصل به ، وتؤثّر فيه. فيكون هذا المعنى خاصية في بعض الأعين كالخواص في الأشياء.

وبهذا الصدد قال الأصمعي:

رأيت رجلاً عيوناً سمع بقرة تُحلب فأعجبه سخبُها.

فقال: أيَّتهنَّ هذه؟ فقالوا : (البقرة أخرى يورون عنها فهلكتا).

قال الأصمعي: وسمعته يقول: إذا رأيت الشيء يعجبني وجدت حرارة تخرج من عيني. ومما يُروى أنّ العرب قديماً قبل الإسلام كان الرجل منهم إذا أراد أن يصيب صاحبه بالعين تجوَّع ثلاثة أيام، ثم كان يصفه فيصرعه بذلك[8] وبهذا المعنى يقول الشاعر العربي:

ترميك مزلقة العيون بطرفها
وتكلُّ عنك نصالُ نبل الرامي

---

(٦) ابن عبد ربه . العقد الفريد . ج ٧ . ص ٢٨٦ .

(٧) الطبرسي . مجمع البان . ج ٥ . ص ٢٤٥ .

(٨) الطبرسي . مجمع البان . ج ١ . ص ٢٤١ .

وقال آخر:

يتقـــــارنون إذا التقــــوَك في مجلـــــس
نظـــــراً يـــــزلُّ مواطـــــن الأقـــــدام

وقال آخر[٩]:

وجـــــاؤوا إليـــــه بالتعـــــاويذ والرُّقـــــى
فصبُّـوا عليـه المـاء مـن شـدِّة النُكـس
وقـــالوا بــــه مـــن أعـــين الجـــن نظـــرةٌ
ولـــو أنصفـــوا قـــالوا بـــه أعـــين الأنـــس

وقد نقل المسعودي عن الجاحظ أنَّ البومة لا تخرج بالنهار خوفاً من العين لأنَّها تظنُّ أنَّها حسناء..

وخوفاً من عيون الحسَّاد عمد الشاعر ديك الجن الحمصي إلى قتل جاريته، وبعد ذلك ندم على ما فعل[١٠].

يـــا طلعـــةً طلــــع الحِمـــام عليـــــها
وجنــــى لهــــا ثمــــر الـــــردى بيديـــــها
روَّيـــتُ مـــــن دمــــها الــــثرى ولطالمــــا
روَّى الهـــوى شـــــفتيَّ مـــــن شـــــفتيها
فوحـــق نعليـــها ومـــا وطـــىء الحصـــى
شـــــيءٌ أعـــــزُّ علـــــيَّ مـــــن نعليـــــها
مـــا كــــان قتليـــها لأنِّــــي لم أكــــن
أخشــــى إذا ســــقط الغبــــار عليــــها

---

(٩) القرطبي. الجامع لأحكام القرآن. ج ١. ص ١٦١.

(١٠) ديوان ديك الجن الحمصي.

لكــن ضننــتُ علــى العيــون بحســـنها
وأنفـــتُ مـــن نظـــر الحســـود إليـــها

ولقد كان شعراء العرب يحسبون حساباً لأعين الرقباء والواشين. والوشاة فصلٌ في قصة كلُّ حب.

وهل يفعل الناس إلاَّ أن يراقبوا الناس؟

ولذلك كانوا يعتمدون على إشارات العيون التي تحدِّث بلغة لا يفهمها إلاَّ أصحابها.

وللعين في شعر (أبي نواس) حقٌ على كلِّ راءٍ يخشع للمحاسن[11].

يـــا تـــاركي جســـداً بغـــير فـــؤاد
أســـــرفت في هجــــرى وفي إبعــــادى
إن كـــان يمنعـــك الزيـــارة أعـــينٌ
فـــــادخل إلـــــيَّ بعلَّـــــة العـــــوَّاد
إنَّ القلـــوب مـــع العيـــون إذا جنـــت
جـــاءت بليَّتـــها علـــى الأجســـاد

وجميلات (عمر بن أبي ربيعة) كثيرات، وأكثر منهن نظراته بين المحصَّب من منى.

ولدى كلِّ ملتمع بهاء؛ غير أنَّ رائعته في (نعم) أنست الرواة عناية الأفواه بالمعلَّقات:

وترنـــو إلـــيَّ بعينيـــها كمـــا رنـــا
إلى ربـــرب وســـط الخميلـــة جـــؤذر[12]
إذا جئـــت فـــامنح طرفـــك غيرنـــا
لكـــى يحســـبوا أنَّ الهـــوى حيـــث تنظـــر

---

(١١) د. علي شلق. العين في الشعر العربي. ص ٣٧.

(١٢) د. علي شلق. العين في الشعر العربي. ص ٣٧.

ثم يقول:

ولمـــــا التقينــــا بالثنيَّـــــة أومضـــــت
مخافـــــة عـــــين الكاشـــــح المتنعِّـــــم
أشــارت بطــرف العــين خشــية أهلــها
إشـــــارة محـــــزون ولم تتكلَّـــــم
فـأيقنت أنَّ الطــرف قــد قــال: مرحبــاً
وأهـــــلاً وســـــهلاً بـــــالحبيب المتيَّـــــم

ومـن لطيـف مـا أورده ابـن المعـتز انتظـاره غفلـة الرقيـب لتسـرق عينـه نظـراً جديداً(١٣):

أردُّ الطـــــرف مـــــن حـــــذرى عليـــــه
وأمنحـــــه التجنُّـــــب والصـــــدودا
وأرصـــــد غفلـــــة الرقبـــــاء عنـــــه
لتســـــرق مقلـــــتى نظـــــراً جديـــــدا

العيون الحاسدة عيون تعرَّت من قيم الجمال الروحية واستحالت عيوناً فارغةً دأبها أن لا تغرِّد الطيور، وأن تذبل الورود.

تؤدُّ لو تستلَّ من الطير المغرِّد روحه، ومن الشجر الورق الجذور.

ذكر عن بعض العائنين أنه كانت تمرُّ به الناقة السمينة فيعينها ثم يقول لخادمه:

ولا بدَّ من الصبر على كيد الحسود، وعدم الاهتمام به.

فالحاسد ــ في الغالب ــ لا يتمتَّع بحياةٍ سعيدة، لأَنَّه مشغول دائماً بحقده وحسده. قال الشاعر:

---

(١٣) د. علي شلق. العين في الشعر العربي. ص ٨٤.

اصــــبر علـــى كيـــد الحســـو
د، فــــــإنَّ صـــــبرك قاتلـــــه
فالنـــــارُ تــــأكل نفســـــها
إن لم تجـــــد مـــــا تأكلُـــــه

والعين تسرق وتنهب على حدِّ تعبير الشاعر مان الموسوس[١٤].

مـــن الظِّبـــاء ظبـــاءُ همُّـــها السَّـــخُبُ
وحَليبـــها الـــدرُّ واليـــاقوت والذهـــبُ
يـا حسـن مـا سـرقت عيـنى ومـا انتـهبت
والعـــين تســـرقُ أحيانـــاً وتنتـــهب
إذا يـــدٌ ســـرقت فـــالحدُّ يقطعـــها
والحـــدُّ في ســـرقة العينـــين لا يجـــب

وشرُّ العيون عند العرب هي خائنة الأعين التي تسارق النظر إلى الأشياء المحرَّمة.

قال تعالى: ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ [غافر: ٢٠].

يُروى أن أعرابية مرَّت بجماعةٍ من بني نمير، فأداموا لها النظر فقالت: يا بني نمير ما فعلتم بقول الله تعالى: ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ﴾.

ويقول الشاعر:

فغـــضِّ الطـــرف إنَّـــك مـــن نمـــير
فـــلا كعبـــاً بلغـــت ولا كلابـــا
ولـــو وُزنـــتْ حلـــوم بـــنى نمـــير

---

(١٤) ابن عبد ربه. العقد الفريد. ج ٧. ص ١٦٢.

علـــى المـــيزان مـــا وزنـــت ذبابـــا

والشاعر حاتم الطائي يفتخر بأنَّه يغضُّ البصر عن جارات قومه فلا ينظر إليهن بسوء[١٥].

ومـا ضـرَّ جـاراً يـا ابنـة القـوم فـاعلمي
يجـــاورني أن لا يكـــون لـــه ســـترُ
بعيـــنيَّ عـــن جـــارات قومـــي غفلـــةٌ
وفي الســـمع مـــني مـــن حديثـــهم وقـــرُ

وقد ورد في القرآن الكريم آية تخاطب المؤمنين وتطالبهم بغضِّ البصر:

﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ﴾.

ومن الملاحظ أنَّ الآية استعملت كلمة (الأبصار) التي هي جمع (البصر).

وهناك فرق في الدلالة بين كلمة (بصر) وكلمة (عين).

فكلاهما يطلق على العضو الباصر؛ غير أنَّ كلمة (عين) تطلق دون أن تتضمَّن دلالة على الإبصار، ولذلك استخدمت الآية كلمة (الأبصار) لا (العيون).

واستعملت الآية كلمةً أخرى، وهي (يغضوا) ومادتها (الغض) ولم تستخدم كلمة (غمض) لأنَّ الغمض يعني إطباق الجفون.

أما (غضَّ) فتستعمل مع البصر والنظر والطرف عادةً.

والغض يعني تخفيف النظر، وعدم تركيزه[١٦].

---

(١٥) مصطفى طلاس. مختارات شعرية. ص ٥٤.

(١٦) مرتضى المطهِّري. ترجمة حيدر آل حيدر (مسألة ١ الحجاب). ص ٩٥.

ورُوي عـن المعلَّـى الصـوفي(١٧) قولـه: شـكوت إلى بعـض الزهَّـاد فســاداً أجــده في قلبي فقال: هل نظرتَ إلى شيء فتاقت إليه نفسك؟ قلت: نعم. قال: احفظ عينيك؛ فإنك إن أطلقتهما أوقعتاك في مكروه، وإن ملكتهما ملكت سائر جوارحك.

إياك والنظر إلى كلِّ ما دعاك إليه طرفك، وشوَّقك إليه قلبك.

---

(١٧) الأب لويس شيخو اليسوعي. مجاني الأدب. ج ٢. ص ٢٧.

العين العمياء

البصرُ أغلى النعم، لكنَّه يرخص أمام نعمة الحياة.

هناك من ولد عديم البصر، أو فقد بصره خلال حياته فبقي متمسكاً بغريزة البقاء، وعانق الحياة وأحبَّها كما يحبَّها المبصرون.

وهناك من فقد البصر، فأضاع معه الأمل، وضاعت في نفسه معاني الوجود.

يقول ناصر الدين شافع علي الكناني العسقلاني وكان أديباً وشاعراً مصرياً:

أضحى وجودى برغمى في الورى عدما
إذ ليس فيهم وردٌ ولا صدرُ
عدمتُ عينىَّ ومالى فيهما أثر
فهل وجود ولا عين ولا بصرُ

وقد قرن القرآن الكريم البصر بالبصيرة لفظاً ومعنى. قال تعالى:

﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم، فمن أبصر فلنفسه، ومن عمي فعليها﴾.

فالبصر كاملاً هو رؤية الأشياء بأبعادها، ويستوي فيه الإنسان والحيوان.

بل إنَّ حدة بصر البزاة والنسور والصقور تفوق مرات عديدة بصر الإنسان.

أمَّا البصيرة فهي رؤية معاني الأشياء، وإدراك حقائقها بالعقل الذي يتميَّز به الإنسان وحده.

يقول الأديب ميخائيل نعيمة في كتابه البيادر: ((من أكمل كمالات العربية وأسماها تمييزها ما بين البصيرة والبصر، وجعلهما الكلمتين فرعين من أرومةٍ واحدة بل توأمين من بطن واحد. لكنَّ ذاك الفرع غير هذا)).

ثم يقول: ((البصر ومركزه العين يحصر كلَّ همِّه في التقاط أشكال الأشياء وألوانها. في حين أنَّ البصيرة، ومركزها القلب، أو الوجدان، همُّها الوصول إلى بواطن الأشياء دون التلهّي بمظاهرها، فالاثنان يدأبان وراء المعرفة)).

والعمى في منطق الإسلام هو عمى القلوب التي في الصدور، أو هو العَمَه في البصيرة.

وقد عبَّر كثير من الشعراء العرب المكفوفين عن هذا الرأي بوضوح:

فعبد اللّه بن العبَّاس ابن عم النبي صلى اللّه عليه وسلم قال بعد أن كفَّ بصره:

إن يأخذ اللّه من عينيَّ نورهما

ففي لساني وسمعي منهما نور

قلبي ذكي وعقلي غير ذي دخل

وفي فمي صارم كالسيف مأثور

وقال الشاعر أبو يعقوب الخريبي:

فإن يك عيني قد خبا نورها

فكم قبلها نور عين خبا

فلم يعم قلبي ولكنَّما

أرى نور عيني لقلبي سعى

إنَّ نور العين إذا خبا ذهب إلى القلب. هذا ما قاله أيضاً أحمد بن عبد اللّه الدائم:

إن يذهب اللّه من عينيَّ نورهما

فإنَّ قلبي بصير ما به ضررُ

أرى بقلبي دنياي وآخرتي

والقلب يدرك ما لا يدركُ البصر

قيل لبشَّار بن برد وقد أنشد قوله:

كــأَنَّ مثــار النقــع فــوق رؤوســنا
وأســيافنا ليــل تــهاوى كواكبــه

ما قال أحد أحسن من هذا التشبيه، فمن أين لك هذا ولم ترَ الدنيا قط ولا شيئاً منها؟ فقال: (إنَّ عدم النظر يقوِّي ذكاء القلب، ويقطع عنه الشغل بما ينظر إليه من الأشياء، فيتوَّفز حسُّه، وتَّتقد قريحته)) ثم أنشدهم قوله:

عميــتُ جنينــاً والذكــاء مــن العمــى
فجئــت عجيــب الظــنِّ للعلــم موئــلا
وشــعر كنــور الــروض لاءمــت بينــه
بقولــى إذا مــا الشــعر أحــزن أســهلا

ومن المعروف أنَّ النظر يشتِّت الفكر، وأَنَّ الإنسان يتجمَّع فكره إذا أغلق عينيه.

لذا يمتاز الأعمى عادة بحدة السمع واللمس، وصفاء الفكر وقوة الحافظة.

وأشهر شاعر أعمى عرفه العرب في تاريخهم الفيلسوف أبو العلاء المعري الذي روى التاريخ عن ذكائه الكثير، وتحدَّث عنه من تحدَّث كأنَّه بعض الخوارق والأعاجيب. وذكروا أنَّه دخل على المرتضى أبي القاسم فعثر برجلٍ فقال: من هذا الكلب؟

فقال أبو العلاء: ((الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً)).

وكثيرون ممن أغلقت عيونهم ستائر الظلام فاستعاضوا عن البصر بالبصيرة وصاروا نجوماً يسترشد بها المبصرون.

(ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) قال الرسول صلى الله عليه وسلم.

((ما من عبدٍ إلاَّ ولقلبه عينان وهما غائبان يدرك بهما الغيب فإذا أراد الله بعبدٍ خيراً أفتح عيني قلبه ليرى ما هو غائب عن تصوُّره)).

والشاعر المنتجب العاني يتساءل[١٨]:

ومــــا أخـــو عينـــين وهـــو أعـــورُ؟
وميِّـــت حــــى وأعمـــى مبصـــــر؟

وهو يريد بالأعور ذي العينين الأعمى عن النجدين.

والميِّت الحي: هو حي الجسم ميِّت الفؤاد عن سبل الرشاد.

ومثله قوله للضال:

فـــابك الغـــداة بدمـــع إن بكيـــت علـــى
أعمـــى بصـــير لـــه في الـــرأس عينـــان

الرؤية الجزئية هي رؤية الباصرة، والرؤية الكبرى الكلِّية هي رؤية البصيرة وما قيمة البصر إذا انطفأت البصيرة؟

ومـــا انتفـــاع أخـــى الدنيـــا بنـــاظره
إذا اســـتوت عنـــده الأنـــوار والظُلَـــم[١٩]
أنـــا الـــذى نظـــر الأعمـــى إلى أدبـــى
وأسمعـــت كلمـــاتى مـــن بـــه صمـــمُ

ومن طريف ما قاله الشاعر على لسان أعمى[٢٠]:

سمعــــــت أعمـــــــى مــــــرةً قـــــائلاً
يـــا قـــوم مـــا أصعـــب فقـــد البصـــر
أجابــــه الأعـــــور مـــــن خلفـــــه
عنـــدى مـــن ذلـــك نصـــف الخـــبر

---

(١٨) د. أسعد علي. فن المنتجب العاني. ص ٢٢٢.

(١٩) د. علي شلق. العين في الشعر العربي. ص ٧٥.

(٢٠) الأب لويس شيخو اليسوعي. مجاني الأدب. ج ٢. ص ١٦٤.

الفصل الخامس:

- معاني البكاء الإنسانية.
- شيخوخة العين.
- أفعال العين وتأثيراتها.

(جولة فنية في آفاق العين)

من معاني البكاء الإنسانية

من أروع وأصدق الأشعار التي تجسِّد المعاني في تفسير البكاء أبيات لابن الرومي قالها في وفاة ولده. فلقد أجهش بالبكاء وقال مخاطباً عينية الباكيتين.

إنَّ البكاء شفاء للنفس الحزينة ولكنَّه لا يردُّ مفقودا:

بكاؤكما يشفى وإن كان لا يجدى
فجودا فقد أودى نظير كما عندى

فالدمع لم يُخْلَقْ في جفن امرىءٍ عبثاً:

لم يخلق الدمع في جفن امرىءٍ عبثاً
إنَّ البكاء لموجوع ومحروب
لم يخلق الدمع لامرىءٍ عبثاً
اللّه أدرى بلوعة الحزن

عن أسامة بن زيد أنَّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عندما رفع إليه ابن ابنته وهو في الموت إذ فاضت عيناه بالدمع، فقيل له ما هذا يا رسول اللّه؟ فأجاب: ((هذه رحمة اللّه جعلها في قلوب عباده، وإنَّما يرحم اللّه من عباده الرحماء)).

في الدموع ضعف وقوة، فهي عند الثكالى صرخة في وجه العذاب.

وهي جوهر البلاغة إذا تعرَّض النطق للاغتيال.

هي انبعاث النور في مبسم الفجر، وقوس قزح بين الغيوم وقطرات ندى على شواطئ الضنى في غابات الحنين، ومحنة النفس إذا استدرَّ الدمع ذلُّ الهوى، ومذلَّة السؤال.

فقد يكون البكاء سبباً في استدرار العطف للحفاظ على العهد.

يقول الشاعر قيس بن الحدَّادية[1]:

وقـــالت وعيناهـــا تفيضـــان عَـــبرةً

بـــأهلىَ بيِّـــن لـــى متـــى أنـــت راجـــعُ؟

فقلـــت لهـــا : بـــالله يـــدرى مســـافرٌ

إذا أضمرتـــه الأرض مـــا الله صـــانعُ

فشـــدَّت علـــى فيـــها اللثـــام وأعرضـــت

وأقبـــل بـــالكُحل الســـحيق المدامـــعُ

إنِّـــى لعـــــهد الـــــودِّ راع وإنَّـــــنى

بوصلِـك مــا لم يطونــى المــوت، طــامعُ

لم يُخلَقِ الدمع في جفن امرىءٍ عبثاً، فالشاعر العباس بن الأحنف تسيل دموعه حينما رأى السيل قادماً من وادٍ قريب من المكان الذي يسكنه الحبيب:

يقول:

جرى السيل فاستبكانى السيلُ إذ جرى

وفـــاضت لـــه مـــن مقلـــتىَّ غُـــروبُ

ومـــا ذاك إلاَّ حـــين خـــبِّرت أنَّـــه

يمـــرُّ بـــوادٍ أنـــت منـــه قريـــبُ

يكـــون أجاجـــاً مـــاؤه فـــإذا انتـــهى

إليكـــم تلقَّـــى طيبكـــم فيطيـــبُ

فياســاكنى شــرقىَّ دجلــة كلُّكـــم

إلى القلـــب مـــن أجـــل الحبيـــب حبيـــبُ

إنَّ لوعة القلب تستدرُّ عصي الدمع؛ وهذه جنايات العيون.

---

(١) أدونيس. ديوان الشعر العربي. ص ١٠٦.

يقول البحتري[٢]:

بعينـــــكِ لوعـــة القلـــب الرهـــين
وفـــرط تتـــابعِ الدمـــعِ الهتـــونِ
نظـــرتُ وكـــم نظـــرتُ فـــأقَصدَتْنى
فجـــاءاتُ البـــدور علـــى الغصـــون
وربَّـــت نظـــرةٍ أقلعـــتُ عنـــها
بســـكر في التصـــابى أو جنـــون
فيـــا لله مـــا تلقـــى القلـــوبُ الهـــوا
ئـــمُ مـــن جنايـــاتِ العيـــون

فقد تساهم الدموع في إطفاء لهيب القلب الذي يتحرَّق شوقاً للقاء المحبوب والظفر منه بكمال الوصال ونعيمه.

يقول الشاعر الصوفي (المنتجب العاني)[٣]:

إن كنـت لـى صاحبـاً قـف لـى بـهبُّودِ
وقـــل لعينـــك في أطلالهـــا جـــودى
عســـى الدمـــوع إذا انـــهلَّت غواربُـــها
تُطفـــى لهيـــب ســـليب اللـــبِّ معمـــود
تخـــالفتْ زفراتـــى والدمـــوع بـــها
فـــهنَّ مـــا بـــين تصويـــب وتصعيـــدِ

---

(٢) ديوان البحتري. ص ١٣٣.

(٣) فن المنتجب العاني. د. أسعد علي. ٢٣٢.

وهو يرى أنَّ العاشق لا يلام إذا أضناه حبُّه، وتقرَّحت من البكا عيناه:

فـــــلا تلـــــم مـــــن شـــــفَّه جـــــواه
وقرِّحـــــت مـــــن البكـــــا عينـــــاه

ونلاحظ هنا صورة التأثُّر الشديد الذي يعانيه العاشق وتتجلَّى الصورة النفسية حيَّة في العينين المجرَّحتين من كثرة البكاء وحدَّته (قُرِّحت).

والشاعر قيس بن الملوح[٤] يرى أنَّ محبوبته هي سبب هيمانه وبكائه الدائم:

معذبـــتى لـــولاك مـــا كنـــت هائمـــاً
أبيـــت ســـخين العـــين حـــرَّان باكيـــا
فـأنت الـتى إن شـئت أشـقيت عيشـتى
وأنـــت الـــتى إن شـــئت أنعمـــت باليـــا

أمَّا الشاعر (نصيِّب) فله في قلق العين العاشقة ساعة الهجر وعند التلاقي ما يحمِّلنا همه ولو بعد مئات السنين:

ومـــا في الأرض أشـــقى مـــن محـــبٍّ
وإن وجـــد الهـــوى حلـــو المـــذاق
تـــــراه باكيـــــاً أبـــــداً حزينـــــاً
مخافـــــة فرقـــــةٍ أو لاشـــــتياق
فيبكـــــى إن نـــــأوا شـــــوقاً إليـــــهم
ويبكـــــى إن دنـــــوا خـــــوف الفـــــراق
فتســـــخن عينـــــه عنـــــد التنـــــائى
وتســـــخن عينـــــه عنـــــد التلاقـــــى

---

(٤) مصطفى طلاس. مختارات. ص ١٢٢.

ومن أعجب ما قيل في الدمع ما نُسب إلى السري[٥]:

بنفسـي مـن ردَّ التحيـة ضاحكـاً
فجـدَّد بعـد اليـأس في الوصـل مطمعـي
إذا مـا أبـدى الغـرامُ سـرائري
وأظـهر للعـذَّال مـا بـين أضلعـي
وحـالت دمـوع العـين بيـنى وبينـها
كـأنَّ دمـوع العـين تعشـقه معـي

وقول ماني الموسوس:

بكـت عيـنى غـداة البـين دمعـاً
وأخـرى بالبكـاء بخلـت علينـا
فعـاتيت الـتى بخلـت علينـا
بـأن أغمضتـها يـوم التقينـا

---

(٥) أبو هلال العسكري. ديوان المعاني. ٢٦٤.

شيخوخة العين

في فصل الخريف تذبل الورود، وتصفرُّ أوراق الشجر.

وفي خريف العمـر يسـري الكلـل والوهـن في خلايـا وأعضـاء الإنسـان، وتشيخ العيون، ويضعف البصر، تلك هي سنة الوجود؟

وها هو شاعر الشباب أحمد رامي يأخذ دوره في ملعب الحياة بعد أن ولّى عنه الشباب فوقف قبل وفاته على المنحنى مرتعشاً يخشى الانزلاق وراح يعبِّر عن آخر مرحلة من مراحل العمر مجيباً على المتسائلين:

يقولـون مـا هـذا الشـحوب الـذى نـرى
بوجـهك بـل مـا هـذه النظـراتُ
فقلـت لهـم: إنِّـى دفنـت نضـارتى
وقـد ضربـت في قلـبى الظلمـاتُ
تشـرَّد لحظـى ثـم غشَّـته ترحـةٌ
كمـا غشـيت شمـس الضحـى المزنـاتُ
لقـد كـان برَّاقـاً وقـد كـان ضاحكـاً
فـراح بريـق اللحـظ والضحكـاتُ

وإذا بلغ الإنسان أرذل العمـر راح البصـر يخبـو شـيئاً فشـيئاً وليـس مـن سـبيل إلى إعادة نضارته وتألُّقه.

ويتطلَّع الإنسان العجوز أمامه وهو ينطلق متعثِّراً في خريف العمر.

فإذا رأى لا يرى سوى شمس وجوده تجري مسرعةً نحو الغروب ويتمثَّل قول أبي حازم الباهلي:

ولَّـى الشـباب فخـلِّ الدمـع ينـهمل
فقـد الشـباب بعقـد الـروح متَّصـلُ

أفعال العين وتأثيراتها ((جولة فنية في آفاق العين))

في ظلال العينين يتعلَّم الإنسان معنى الحب، وتبسط الأزاهر أيديها للنسيم، ويرقص العشب على إيقاع الندى.

يقول المتنبي:

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقى
وللحبِّ ما لم يبقَ منى وما بقى
وما كنت ممن يدخل العشق قلبه
ولكنَّ من يبصر جفونك يعشق

وفي قصيدة، نهج البردة[٦] لأمير الشعراء أحمد شوقي نرى الشاعر يستغيث بالمقتول للقاتل ويستنجد بالغزال للسَّبع:

ريمٌ على القاع بين البان والعلم
أحلَّ سفك دمي في الأشهر الحرم
رمى القضاء بعيني جؤذر أسداً
يا ساكن القاع أدرك ساكن الأجم
لما رنا حدَّثتني النفس قائلةً
يا ويح جنبك بالسهم المصيب رُمي
يا ناعس الطرف لاذقت الهوى أبداً
أسهرت مضناك في حفظ الهوى فنم

---

(٦) أحمد شوقي. الشوقيات. المجلد الأول. ص ١٩٠.

الحسن في الحدق الرواني، وسرُّ السعادة في الدنيا تجلوه عينان على حدِّ تعبير الشاعر بدوي الجبل:

ويـــا نفســـى عبدتـــك عـــن يقـــين
وحســـبى قـــد عبـــدت بـــك الإلهـــا
أحـــب الحســـن في الحـــدق الروانـــى
وفي ثغـــــر الفتـــــاة وفي لماهـــــا
ســـر الســـعادة في الدنيـــا وإن خفيـــت
تجلـــوه منـــك علـــى الأكـــوان عينـــان
آمنـــت بـــالحب مـــا شـــاءت عذوبتـــه
آمنـــت بـــالحب فـــهو الهـــادم البـــانى

وحين يزور الطيف المحبوب أجفان الشاعر يرتفع على أجنحة الهوى إلى عالم مسحور من رؤى العينين:

رفعتـــنى بجنـــاحى قـــدرةٍ وهـــوى
لعـــالم مـــن رؤى عينيـــك مســـحور
تعـبُّ مـن حسـنه عيـنى فـإن سـكرت
أغفـت علـى سندسـى مـن أسـاطير
أخـادع النـوم إشـفاقاً علـى حُلُـم
حـان علـى الشـفة اللميـاء مخمـور
وزار طيفـــك أجفـــانى فعطَّرهـــا
يـــا للطيـــوف الغريـــرات المعاطـــير

والعيون لا تبوح بما خبَّأته من أسرار القدر في طيَّات أهدابها التي تجاري المدى في ابتكار الكون تلو الكون:

يقول الشاعر سعيد عقل:

ألعينيـــــــك تـــــــأنّى وخطـــــــر
يفـــرش الضـــوءَ علـــى التـــلِّ القمـــرْ[٧]
ضاحكـــــاً للغصـــــن مرتاحـــــاً
إلى ضفَّـــة النـــهر، رفيقـــاً بـــالحجر
عـــــلَّ عينيـــــك إذا آنســـــتا
أثـــراً منـــه عـــرا الليـــل خـــدر
مـــن تُـــرى أنـــت إذا بُحـــت بمـــا
خبَّـــأت عينـــاك مـــن ســـرِّ القـــدر
نســـج أجفـــانك مـــن خيـــط الســـهى
كـــلُّ جفـــن ظـــلَّ دهـــراً يُنتظـــر
مفـــــردٌ لحظُـــــك إن ســـــرَّحته
طـــار بـــالأرض جنـــاح مـــن زهـــر
وإذا هدبـــــك جـــــاراه المـــــدى
راح كـــون تلـــو كـــون يبتكـــر

تفتك سهامها في قلب المحب فيجيب ابن المعتز:

قـــالوا اشـــتكت عينـــه فقلـــت لهـــم
مـــن كـــثرة الفتـــك نالهـــا الوصـــبُ
حمرتـــها مـــن دمـــاءِ مـــن قتلـــتْ
والـــدم في النصـــل شـــاهد عجـــبُ

---

(٧) سليمان العيسى. حب وبطولة.

ويقول آخر:

قــالوا الحبيــب شــكا جُعِلْــتَ فــداءه

رمـــداً أضـــرَّ بعينـــه كـــالعندم

فأجبتـــهم مـــا زال يفتـــك لحظـــه

في مـــهجتى حتـــى تلطَّـــخ بـــالدم

ويطالب الشاعر أحمد شوقي محبوبه بأن يقف عند حدِّه وأن يُغمد سيف لحظه ألا يمكنُ إعلان هدنةٍ مؤقَّتةٍ(8):

قـــف بـــاللواحظ عنـــد حـــدِّك يكفيـــك فتنـــةُ نـــار خـــدِّك

واجعـــلْ لغُمـــدك هدنـــةً إنَّ الحـــوادث مـــلءُ غمـــدك

نظـــرتْ إليـــك مـــن الفتـــور ومـــا اتَّقـــت ســـطوات حـــدِّك

أعلـــى روايـــات القنـــا مـــا كـــان نســـبته لقـــدِّك

أي تقوى الله والتزام الحدود؟

لحظَـــها لحظـــها رويـــداً رويـــداً

كـم إلى كـم تكيـد للـروح كيـدا(9)

كـــفَّ أو لا تكـــفَّ إنَّ بجنـــبىْ

لســـهاماً أرســـلْتَها لـــن تُـــردَّا

تصـــلُ الضـــرب مـــا أرى لـــك حـــدَّاً

فـــاتَّق الله، والـــتزم لـــك حـــدَّا

أو فصـــغ لـــى مـــن الحجـــارة قلبـــاً

ثـــم صـــغْ لـــى مـــن الحدائـــد كِبـــدا

---

(8) أحمد شوقي. الشوقيات. ص ١٢١.

(9) المرجع نفسه. ص ١١٧.

هـذي الجفـون القاتلـة لا ترحـم؛ إنَّها جمية تتهتَّك الألبـاب خلـف حجابـها فـهي الشمس المنيرة في الأنوار تخطف الأفئة والأبصار!!

في ذى الجفـــون صـــوارم الأقـــدار
راعـــى البريـــة يـــا رعـــاك البـــارى
مـــا أنـــت في هـــذا الحلـــى إنســـيةٌ
إن أنـــت إلا الشـــمس في الأنـــوار
تتـــهتَّك الألبـــابى خلـــف حجابـــها
مـــهما طلعـــت فكيـــف بالأبصـــار؟

وقد تفتك العين بسيوف لحظها فتريق دم العشاق ولا ذنب لها في المحصلة. يقول الشاعر أبو الحسن علي بن عبد الغني الحصري في قصيدته المشهورة:

يـــا ليـــل الصـــب متـــى غـــده أقيـــام الســـاعة موعـــده؟
رقـــد الســـمار فأرقَّـــه أســـف للبـــين يـــردَّده
كلـــف بغـــزال ذى هيـــف خـــوف الواشـــين يشـــرِّده
نصبـــت عينـــاك لـــه شـــركاً في النـــوم فعـــزَّ تصيُّـــده
صـــاح والخمـــر جنـــى فمـــه ســـكران اللحـــظ معربـــده
ينضـــو مـــن مقلتـــه ســـيفاً وكـــأن نعاســـاً يغمـــده
فـــيريق دم العشـــاق بـــه والويـــل لمـــن يتقلَّـــده
كـــلا لا ذنـــب لمـــن قتلـــت عينـــاه ولم تقتـــل يـــده
يـــا مـــن جحـــدت عينـــاه دمـــى وعلـــى خديـــه تـــورُّده
خـــداك قـــد اعترفـــا بدمـــى فعـــلام جفونـــك تجحـــده؟

إن السـيوف لتنبـو أحيانـاً فـلا تسـتطيع أن تحقـق الهـدف ولكـن العيـون تدمـي القلوب بألحاظها القاتلة على حد تعبير شاعرنا البحتري[١٠]:

---

(١٠) ديوان البحتري. ص ٢٩٩.

وغريـــــر يلقـــــى صبابـــــة مـــــزن
مـــــدَّة الليـــــل في صبابـــــة كـــــرم
بـــتُّ عـــن راحتيـــه شـــارب خمـــر
وكـــأني للســـكر شـــارب ســـمٍّ
وبحـــق إن الســـيوف لتنبـــو
تـــارة والعيـــون بـــاللحظ تدمـــى

وقريب من هذا المعنى قول المتنبي(١١):

ولـــذا اســـم أغطيـــة العيـــون جفونـــها
مـــن أنـــها عمـــلَ الســـيوف عوامـــل

وقوله:

كـــلُّ جريـــح ترجَّـــى ســـلامته
إلاَّ فـــؤاداً دهتـــه عيناهـــا

كما أنها لا ترى في شخص المحبوب إلا الحسن على حد تعبير عمر بن أبي ربيعة(١٢):

ولقـــد قـــالت لجـــارات لهـــا   وتعـــرَّت ذات يـــوم تبـــترد
أكمـــا ينعتـــني تبصرنـــني   عمركـــن الله أم لا يقصتـــد
فتضـــاحكن وقـــد قلـــن لهـــا   حســـن في كـــل عـــين مـــن تـــود
حســـداً حملْنـــه مـــن أجلـــها   وقديمـــاً كـــان في النـــاس الحســـد
ولهـــا عينـــان في طرفيـــهما   حـــور منـــها وفي الجيـــد غيـــد
كلمـــا قلـــت متـــى ميعادنـــا؟   ضحكـــت هنـــد وقـــالت بعـــد غـــد

---

(١١) ديوان المتنبي. ج ٣. ص ٢٥٢-٢٧١.

(١٢) شكري فيصل. تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام. ص ٣٦٦.

ويقول ذو الرمة في محبوبته مية:

ومية أحسن الثقلين جيدا
وسالفة وأحسنهم قذالا
فلم أر مثلها نظراً وعيناً
ولا أمَّ الغزال، ولا الغزالا

كما أن الشاعر المجنون تنكر عينه كل منظر بعد المحبوبة التي ملكت عليه سمعه وبصره فلم يعد يرى الحسن إلا فيها(١٣):

كأنى أرى الناس المحبين بعدها
عصارة ماء الحنظل المتفلّق
فتنكر عينى بعدها كلَّ منظر
ويكره سمعى بعدها كل منطق

ويشير ابن الرومي إلى وقع سهام العين:

نظرت فأقصدت الفؤاد بسهمها
ثم انثنت عنه فكاد يهيم
ويلاه إن نظرت، وإن هى أعرضت
وقع السهام ونزعهن أليم

ويتحدث قيس عن سهام لبنى القاتلة التي لا تخطىء الهدف:

برت نبلها للصيد لبنى وريَّشت
وريَّشت أخرى مثلها وبريت
فلما رمتنى أقصدتنى بسهمها
وأخطأتها بالسهم حين رميت

---

(١٣) أدونيس. ديوان الشعر العربي. ص ٢٧٦.

ويرى البحتري أن العين باب إلى القلب[14]:

تــــزوَّدت منــــها نظـــرة لم تجـــد بــــها
وقـــد يؤخـــذ العلـــق الممنَّـــع بـــالغصب

وماكـــان حـــظ العـــين في ذاك مذهـــبى
ولكـــن رأيـــت العـــين بابـــاً إلى القلـــب

ومن الطريف أنَّ ابن المعتز يقارن بين ألوان الفتنة في الخدود والورود والأصداغ والعيون ليقرر في النهاية أن فتن العيون أجل وأعظم من سواها:

ورد الخـــــدود أرقُّ مـــــن ورد الريـــــاض وأنعـــــم
هـــذا تنشَّـــقُه الأنـــوف وذا يقبِّلـــه الفـــم
وإذا عدلـــت فـــأفضل الـــور ديـــن ورد يلثـــم
هـــذا يُشَـــمُّ ولا يضـــمُّ وذا يُشـــمُّ ويضمـــم
ســـبحان مـــن خلـــف الخـــدود شـــقائقاً تتبسَّـــم
وأعارهـــا الأصـــداغ فـــهى بـــها شـــفيق يعلـــم
واســـتنطق الأجفـــان فهـــى بلحظـــها تتكلَّـــم
وتبـــين للمحبـــوب عـــن ســـر الحبيـــب فيفـــهم
وتشـــير إن رأت الرقيـــب بلحظـــها فتســـلِّم
فـــتن العيـــون أجـــلُّ مـــن فـــتن الخـــدود وأعظـــم؟

العيون تسقي الهوى الذي يدب في الجسم دبيب المدام.

يقول الشاعر الخاسر:

ســـقتنى بعينـــها الهـــوى وســـقيتها
فـــدبَّ دبيـــب الخمـــر في كـــل مفصـــل

---

(١٤) ديوان البحتري . ج ٢ ٣٢ . (دار الكتب العلمية . لبنان).

جاء أبو نواس بأروع منه بقوله:

أحـــــبُّ اللـــــوم فيـــــها ليـــــس إلا
لـــــــترداد اسمـــــــها فيـــــــها الأم
ويدخـــــل حبـــــها في كـــــل قلـــــب
مداخـــــــل لا تغلِّقـــــــها المـــــــدام

وفي هذا الأفق قول المتنبي:

وللســــرٍّ مــــنى موضــــع لا ينالــــه
نديــــم ولا يفضــــى إليــــه شــــراب

العينان والقلب أعضاء في الجسم؛ ولكنها عند الأدباء شيء آخر، علم مستقل.

وقد تكون العينان سبباً في ابتلاء القلب بالهوى.

قال الأصمعي: تقدَّمتُ إلى أعرابي يقال له إسماعيل بن عمَّار. وإذا هو يفتل أصابعه، ويتلهَّف. فقلت له: علام تتلهف؟ فأنشأ يقول[١٥]:

عينــــان مشــــؤومتان ويحــــهما!!
والقلــــب حــــيران مبتلــــى بــــهما
عرَّفتــــاه الهــــوى بظلمــــهما
يــــا ليتــــنى قبلــــهما عــــد متــــهما
همــــا إلى الحَيْــــن قادتــــا وهمــــا
دلَّ علــــى مــــا أجــــنُّ دمعــــهما
ســــأعذر القلــــب في هــــواه فمــــا
ســــبَّب هــــذا البــــلاء غيرهمــــا

---

(١٥) أمالي المرتضى ـ الجزء الأول ـ ٤٩٩.

وقد تسبَّب العين اندفاعاً إلى اقتراف الإثم، ودخول النار:

لمــا نظــرتِ إلــيَّ عــن حــدق المــها
وبســـمتِ عـــن متفتِّـــح النـــوَّار
وعقــدت بــين قضيــب بــان أهيــف
وكثيـــب رمـــل عقـــدة الزنَّـــار
عفَّــرتُ خــدِّي في الــثرى لــك طائعــاً
وعزمــت فيــك علــى دخــول النــار

والعين تظهر ما في نفس صاحبها من بغض أو كراهية. فهذا قيس بن ذريح يتحدث عن الوشاة فيقول[١٦]:

أمســى وشــاتك قــد دبــت عقاربــها
وقــد رمــوك بعــين الغــش وابتــدروا
تريــك أعينــهم مــا في صدورهــم
إنَّ الصــدور يــؤدى غيبــها النظــر

والعين ترى ما يشاء المحبوب لا ما يشاء المحب يقول الشاعر بدوي الجبل:

مدلَّــه فيــك مــا فجــر ونجمتــه
مولَّــه فيــك مــا قيــس وليــلاه
ســكبت قلبــك في وجدانــه فــرأت
يــا عــزُّ مــا شــئت لا مــا شــاء عينــاه

---

(١٦) أدونيس. ديوان الشعر العربي. ص ٢٩٢.

إن العين الذكية هي العين التي تعرف كيف تخدع الوشاة. يقول أبو الشيص:

إذا مـــا التقينـــا والوشـــاة بمجلـــس

فليـس لنـا رسـل سـوى الطـرف للطـرف

فـــإن غفـــل الواشـــون فـــزت بنظـــرة

وإن نظـروا نحـوى نظـرت إلى السـقف

وتتعطَّل لغة الكلام عند الوداع، ويشدو إسحاق الموصلي بشعره قائلاً:

ولمـــا رأينـــا البـــين جـــدَّ جـــده

ولم يبـــق إلا أن تبـــين الركـــائب

دنونـــا فســـلمنا ســـلاماً مخالســـاً

فـــردَّت علينـــا أعـــين وحواجـــب

تصـــدُّ بـــلا بغـــض وتخلـــص لمحـــة

إذا غفلـــت عنـــا العيـــون الرواقـــب

أما المستعين بالله فكان يسكت عن الكلام مستعيناً بلغة الهوى والعيون كي تفصح عما يدور بينه وبين حبيبته من شؤون وشجون.

تكلـــم منـــا في الوجـــوه عيوننـــا

فنحـــن ســـكوت والهـــوى يتكلـــم

ونغضـــب أحيانـــاً ونرضـــى بطرفنـــا

وذلـــك فيمـــا بيننـــا ليـــس يعلـــم

أما التلعفري (١١٩٧م – ١٢٧٧م) فيحوم حول نار الوجنات ويسكر من خمر اللواحظ حيث يقول[١٧]:

أدارت مـــــن لواحظـــــها كؤوســـــا
فأنســـــتنا الســـــلاف الخندريســـــا
وأبــــدت خدهــــا القــــانى فكنــــا
هنــــاك لنــــار جنتــــها مجوســــا
فـــــلا والله مــــا ســـــلبت عقـــــولاً
لنــــا لكنــــها ســــلبى نفوســــاً

وقد يستدل بالنظر عن الضمير. ومنه قولهم (شاهد البغض اللحظ)[١٨]:

وقول زهير:

فـــــإن تـــــك في صديــــق أو عــــدو
تخــــبِّرك العيــــون عــــن الضمــــير

وقول ابن أبي حازم:

خـــــذ مـــــن العيـــــش مــــا كفـــــى
ومـــــــن الدهـــــــر مــــــا صفـــــــا
عـــــين مـــــن لا يحــــب وصــــــ
ــــــلك تبــــــدى لــــــك الجفــــــا

ويقول عمر بن أبي ربيعة[١٩]:

وقلـــن: أهـــذا دأبـــك الدهـــر ســـادرا
أمـــا تســـتحى أو ترعـــوى أو تفكـــر

---

(١٧) د. عمر موسى باشا. أدب الدول المتتابعة. ص ٤٣٨.

(١٨) ابن عبد ربه. العقد الفريد. ج ٣. ص ٦٨.

(١٩) د. شكري فيصل. تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام. ص ٣٤١.

إذا جئـت فـامنح طـرف عينـك غيرنـا

لكـي يحسـبوا أن الهـوى حيـث تنظـر

وما أجمل ما ناجى به الشاعر علي الناصر عيني محبوبته لا لأنهما حوراوان دعجاوان بل لأنهما عميقتان بأسرار الحب[٢٠]:

إنـي أشـاهد في عينيـك مـا جمعـت

هـذى الطبيعـة مـن إبـداع فنـان

ففيـهما أقـرأ الآيـات مكتشـفاً

سـر الـورى فـهما وحيـى وقرآنـى

ومنـهما مصـدر الإلهـام يرفعـنى

علـى جناحيـه فـوق العـالم الفـانى

أطـير في عـالم الأحـلام مبتـهجاً

مجـرَّداً مـن تبـاريحى وأحزانـى

فنـاظرى وثـنى في تعبُّـده

يرنـو إليـك بتقديـس وإيمـان

ويضطرم الشوق في غدير العين فيرى الدكتور إبراهيم ناجي[٢١] في عيني محبوبته بحراً وعاصفة وزورقاً يرتطم بصخور المجهول:

يـا للغديريـن في عينيـك إذا لمعـا

بالشـوق يومـض خلـف المـاء مضطرمـا

كـأننى نـاظر بحـراً وعاصفـة

وزورقـاً بـالغد المجـهول مرتطمـا

---

(٢٠) خليل الهنداوي. السير الذاتية. ص ١٦٩.

(٢١) أحمد المعتصم بالله. ناجي شاعر الوجدان الذاتي. ص ٦٦.

وأين منه ذلك الحبيب الساهر الذي يعبق سحره كأنفاس الربا ويسرح طرفه كأحلام المساء:

أيـــن مـــن عيـــنى حبيـــب ســـاهر
فيــــه نبـــــل وجـــــلال وحيـــــاء
واثـــق الخطـــوة يمشـــى ملكـــاً
ظـــالم الحســـن، شـــهى الكبريـــاء
عبـــق الســـحر كأنفـــاس الربـــا
ســـاهم الطـــرف كـــأحلام المســـاء
مشـــــرق الطلعــــة في منطقـــــه
لغـــة النـــور وتعبـــير الســـماء

وهذا علي بن الجهم تفتنه العيون البغداديات فيقع في حبائل الهوى بفعل العين بين الرصافة والجسر:

عيـون المـها بـين الرصافـة والجسـر
جلبن الهـوى مـن حيـث أدرى ولا أدرى
أعـدن لـى الشـوق القديـم ولم أكـن
سـلوت ولكـن زدن جمـراً علـى جمـر
ســلمن وأســلمن القلــوب كأنمــا
تشــكٌ بــأطراف المثقَّفــة الســمر
خليلـــيَّ مـــا أحلـــى الهـــوى وأمـــره
وأعرفـــنى بـــالحلو منـــه وبـــالمرِّ

وقد تكون العين رقيقة بالفؤاد على حد تعبير أبي نواس:

وغريـــر الشـــباب محتبـــك الحســـن
علـــى جيـــده منـــاط التميـــم
فـــهو عـــفُّ الجفـــون في نظـــر العمـــ
ـــد حـــذاراً علـــى فـــؤاد النديـــم

العين وحدها لها حياة، والقلب وحده له حياة، وقد تفرح العين والقلب يتألم:

يقول الشريف الرضي:

تَلَــذُّ عيـــنى وقلـــبى منـــك في ألم
فـــالقلب في مـــأتم والعـــين في عـــرس

كما أن العين تنطق، وتحدَّث الأحاديث الطوال؛ فهي تأمر وتنهى، وتعد وتؤمِّل ولكنها لا تفي:

وعـد لعينيـك عنـدى مـا وفيـت بـه
يـا طـول مـا كذبـت عيـنى عينـاك

ولها دائرة استعلامات تتجسَّس لها على القلب، فتهتك ستره، وتذيع سره.

والشاعر حائر بينهما، متعجب منهما:

هـامت بـك العـين لم تتبـع سـواك هـوى
مـن علَّـم العـين أن القلـب يـهواك؟

والعين تبصر من الحجاز إلى العراق، وترمي بسهام فتونها من ذي سلم فتصيب من في بغداد فتسبي وتصبي لا تمنعها شوامخ الجبال، ولا شواسع البيد.

سـهم اصـاب وراميـه بـذى سـلم
مـن في العـراق لقـد أبعـدت مرمـاك

والعين تحصي عدد شهدائها، وتسجل أسماء من تصيبهم سهامها، وتقرأ على الشاعر من وراء صاحبتها فيشهد جناية العين، ويقرر براءة الحبيبة؛ لأنها لا تدري ما جنت عيناها:

كـأن طرفـك يـوم الجـزع يخبرنـا
بمـا طـوى عنـك مـن أسمـاء قتـلاك

وحين تتلفت العين يتلفت القلب.

ولقـــــد مــــــررت علـــــى ديــــــارهم
وطلولهـــــا بيــــــد البلــــــى نـــــهب
فوقفـــــت حتــــى لجَّ مـــــن لغــــب
نضـــــوي ولجَّ بعذلــــــى الركـــــــب
وتلفتُّـــــت عيـــــنى فمـــــذْ خفيــــت
عــــنى الطلــــول تلفَّـــــت القلـــــب

في بحر عينيها يبدو الأمل أفسح من سطح المعمورة، ينتشر غوصاً في الماضي وتحليقاً في المستقبل حيث يقول أدونيس:

حينمـــا أغـــرق في عينيـــك عيـــنى
ألمـــــــح الفجـــــــر العميقـــــا
وأرى مـــــــا لســــــــــت أدرى
وأحــــــس الكــــــون يجـــــــرى
بـــــــين عينيـــــــك وبيـــــــنى

تتكشف حقائق الحياة الجميلة من قراءة أحاديث العين كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((عينان لا تمسُّهما النار؛ عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله)).

والروعة في المجاز الذي ذكر العين نيابة عن الإنسان كله؛ فكأن الإنسان جُمِّع في عينيه عندما يجاهد، أو يتجه إلى الله مستغفراً متعبداً.

وكما تتصل سلامة عيني الفرد بعيني المجتمع فإن العين تتصل بالمعنى؛ ولذا يقرِّرون في قواعد الإعراب للبصر فعلين.

رأى البصرية؛ ورأى البصيرية أو القلبية.

ويطلُّ البصر على البصيرة؛ بل تتجلَّى البصيرة في البصر.

المحبة بصرية قلبية وكلية.

فمن باب العينين يتم الدخول إلى عالم القلب وبعدها يكون معراج الوفاء المقدس إلى العين الصافية ينبوع الحب الأصغر.

عين الجسد الجميلة منطلق، وعين اليقين غاية.

وفي ساعة الحب تتحد العيون فتصير العين قلباً والقلب عيناً.

العين كتاب كشّاف في مكتبة الوجه.

وخطاب العيون فنون على حد تعبير الدكتور أسعد علي[٢٢]:

عيناك كتاب في آب

تنقلان البحر إلى الجبل

فأسبح في شاطئ الأمل

يا حبيبتي أحب أن أسمع منك نشيد الأناشيد

ونشيد الإنشاد، وأغنية الحب، وسورة مريم

وكل ما صبا إليه المحبون، وأنت تعرفين أنك تستطيعين

اختصار كل ذلك بنظرة عميقة زرقاء كالبحر والسماء..)).

---

(٢٢) د. أسعد علي. مسرح الجمال والحب والفن. ص ١٥٩.

وفي عين العظيم تصغر العظائم كما يقول المتنبي:

علــى قـــدر أهـــل العـــزم تـــأتى العزائـــم
وتـــأتى علـــى قـــدر الكـــرام المكـــارم
وتعظـــم في عـــين الصغـــير صغارهـــا
وتصغـــر في عـــين العظيـــم العظـــائم

وقال جبران خليل جبران في كتابه المجنون[٢٣]:

قالت العين يوماً لرفيقاتها الحواس ((إنني أرى وراء هذه الأدوية جبلاً مبرقعاً بالغيوم فما أجمله جبلاً)).

فأصغت الأذن لحديثها ثم قالت لها:

((أين ذلك الجبل الذي تنظرين؟ إنني لا أسمع صوته)).

ثم قالت اليد:

((أما أنا فعبثاً أحاول أن أشعر به أو ألمسه فليس هنالك جبل البتة)).

وقال لها الأنف: ((لا أقدر أن أشمه. ألا إن وجوده لمستحيل)).

فتحوَّلت العين إلى جهة أخرى ضاحكة في ذاتها.

أما الحواس الأخرى فعقدن مجلساً بحثن فيه عما دعا العين إلى مثل هذا الضلال.

وبعد البحث والتدقيق قررن بإجماع الآراء:

(إن العين قد خرجت ولا شك عن صوابها).

---

(٢٣) المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران. ص ٣٨. دار صادر بيروت.

أما الأخطل الصغير شاعر الحب والشباب فيخاطب المحبوبة التي تربعت على عرش الجمال[٢٤]:

الصبا والجمال ملك يديك
أيُّ تاج أعزُّ من تاجيك؟
نصب الحسن عرشه فسألنا
من تراها له فدلَّ عليك
فاسكبى روحك الحنون عليه
كانسكاب السماء في عينيك

ويعاتب برفق قائلاً:

يا عاقد الحاجبين على الجبين اللجين
إن كنت تقصد قتلى قتلتنى مرتين
تبدو كأن لا تراني وملء عينك عينى
ومثل فعلك فعلى ويلى من الأحمقين!!

ولكنها ظالمة لا ترحم؛ فبكاء الشاعر يصل إلى حدود اليأس:

عش أنت إنى متُّ بعدك[٢٥]
وأطل إلى ما شئت صدَّك
ما كان ضرَّك لو عدلت
أما رأت عيناك قدَّك
وجعلت من جفنىَّ متكأً
ومن عينىَّ مهدك
وحياة عينك وهى عندى
مثلما القرآن عندك

---

(٢٤) ديوان الأخطل الصغير. ص ٣٤ و ٤٥.

(٢٥) ديوان الأخطل الصغير. ص ١٤٣.

مـــــا قلـــــب أمـــــك إن تفارقـــــها
ولم تبلـــــــــــــغ أشـــــــــــــدَّك
فـــــــهوت عليـــــــك بصدرهـــــــا
يـــــــوم الفـــــــراق لتســـــــتردك
بأشـــــدَّ مـــــن خفقـــــان قلـــــبى
يـــــوم قيـــــل خفـــــرت عـــــهدك

والمحب لا يستطيع لحبه كتمانا؛ لأن العين تفضح صاحبها. وعبث الهوى أقوى من الكتمان.

يقول الأخطل الصغير في قصيدته ((عروة وعفراء)) شارحاً قصة الطفلين العاشقين[٢٦]:

وإذا التقـــى النظـــران تلمـــع أســـطر
يعيـــا بحـــلِّ رموزهـــا الولـــدان
حتـــى إذا كـــبرا تولَّـــى شـــرح مـــا
لم يفـــهما قلباهمـــا الخفقـــان
فـــإذا الـــوداد هـــوى وصـــادف تربـــةً
بكـــراً فطـــاب مغارســـاً ومجـــانى
ويـــح المحـــب إذا تملَّكـــه الهـــوى
نمَّـــت بـــه عينـــان فاضحتـــان
عبثـــاً يحـــاول ذو الهـــوى كتمانـــه
عبـــث الهـــوى يقـــوى علـــى الكتمـــان

(٢٦) ديوان الأخطل الصغير. دار الكتاب العربي. بيروت. ص ٢٨٩.

ويقسم الشاعر نديم محمد بعيني محبوبته مؤكداً التزامه وثباته على الوفاء والحب[٢٧]:

لا وعينيـــــك مــــــا هجـــــرت، ولا
ولا مـــــــرَّ في ظنونـــــــى جفـــــــاء
أرجعتـــنى إليـــك نفـــس لهـــا اللّه
وعـــــهد لــــــه علـــــيَّ الوفـــــاء

أما الشاعر رفيق الفاخوري فيرى أنه كان يتخبط في الظلام على غير هدى إلى أن أطل شعاع النور من عينيها فاهتدى إلى الحب، وانجلت عنه الهموم والأحزان:

بــه أبصــرت عيــنى ولم أك مبصــراً
وهبَّت رياحى وانجلت غمرة الكرب[٢٨]
ولـــولا شـــعاع بـــين عينيـــه راعـــنى
وشـــرَّد عقلـــى مـــا اهتديـــت إلى الحـــب

والأجمل من عينيها حب الشاعر سعيد عقل لعينيها[٢٩]:

أجمـــل مـــن عينيـــك حـــبى لعينيـــك
فـــــإن غنَّيـــــتِ غنـــــى الوجــــــود
كنـــت ببـــالى فاشـــتممت الشـــذا
فيـــه، تـــرى كنـــت ببـــال الـــورود؟

وقد تذوَّق الشاعر عبد اللّه الفيصل طعم الهوى بعد أن عاش زمناً هانئ النفس مطمئن البال.

---

(٢٧) مجلة القيثارة، العدد ١٢ . ص ٩.
(٢٨) مصطفى طلاس . مختارات . ص ٤٩٨.
(٢٩) مجلة القيثارة . العدد ١٢ . ص ٣.

فانقلبت حاله، لأن المحبوبة أصبحت شغله الشاغل يتلظى قلبه حباً وحنيناً، ومن بريق الشوق في عينيها يشعل نيران الحنين:

مــن أجــل عينيــك عشــقت الهــوى
بعــد زمــان كنــت فيــه الخلــى
وأصبحــت عيــنى بعــد الكــرى
تقــول للتنــهيد لا ترحــل
مـن بريـق الوجـد في عينيـك أشـعلت
وعلى دربك أنَّى رحت أرسلت عيونى
الرؤى حولى غامت بين شكى ويقينى
والمنى ترقص حولى على لحن شجونى

وفي تجربة الضياع لدى الشاعر عبد المعطي حجازي يواجه الشاعر كآبته بصمت، ويود لو يهرب إلى عينيها بعد أن فقد إيمانه:

مــن بعــد أن فقــدت إيمــاني، وصــرت
عينــاك ملجــأى الأخــير
أمســح خــدى فيــهما
منتظراً نهايتى في بقعة الضوء المثير
عينــاك عشــب نــدى
أفرش ظلى هنيهة ثم أواصل المسير
عينـاك يـا للكلمتـين لم تقـالا أبـداً
خانهما التعبير حتى ظلَّتا كما هما
راهبتــين تلبســان الأســودا
تنتظــران ليلــة العــرس ســدى

إلا أنَّ عينيها غابة أحزان الشاعر، وقصيدته السوداء الرائعة ترتطمان بجدار الغربة الناهض رغم الوله العميق والتعشق، والتناهي في الحب:

فجـأة صرنـا غريبـين وحيديـن نثـير
تلتقـى أعيننـا حينـاً وتشـرد
ثم ترتد بلا ذكرى كأنا ما التقينا

الخاتمة

هذه جولة واسعة في حدائق الشعر العربي قديمه وحديثه تتبَّعنا فيها ما قاله الشعراء في وصف العيون وأفعالها وتأثيراتها وتعرَّفنا على أساليبهم في التعبير عن الجمال ونظرتهم إليه في مختلف العصور.

وهذه هي صورة العين كما رسمها شعراؤنا على امتداد العصور معبرين عن تجاربهم وانفعالاتهم وإحساساتهم الداخلية. فهل حصل تغيُّر في الذوق العربي عبر هذه الصور استجابة لحاجات جمالية جديدة عندهم، ولَّدتْها أنماط المعيشة، والتغيُّرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها.

لقد اختلف الإنتاج الجمالي بمضمونه وبأبعاده عبر القرون. وربما نجمت المغالطة الكبرى في الأطروحات النظرية الجمالية عن مزج الأزمنة التاريخية المختلفة عند معاينة المنتجات الجمالية.

ومن الملاحظ أنَّ التواصل بين الماضي والحاضر يتراوح ما بين الاستفادة من قيم الماضي الجمالية، وتقديس الماضي لمجرد كونه ماضياً، وإقحامه في الحاضر كمثل أعلى جمالي.

وتبقى الصلة الفنية من الصلات الهامة[1].

وقد ساعد ذلك على احتفاظ اللغة بالكثير من موروثاتها القديمة، وعلى احتفاظ أدب اللغة بالكثير من النماذج الموروثة لكنَّ التطور بقي مستمراً عبر التاريخ شكلاً ومضموناً.

إنَّ المعاني التي تعاقب عليها شعراء العصر الجاهلي في الحديث عن العيون وأوصافها متقاربة تشترك في الصورة الخارجية، حيث اعتمدوا على التشبيه والمقاربة وتداولوا ذكر عيون الغزلان والجآذر. وأعربوا عن رقة شعورهم وإحساساتهم بلغة

---

(٢) أطروحات جمالية. محمد الجندي. دمشق ١٩٨٥.

عَذبٍ جرسها، حلوةٍ ألفاظها معتمدين على التشبيه الحسي المستمد من الحياة التي كان يحياها هؤلاء الشعراء الجاهليون ورقة الحياة الداخلية التي كانت تنطوي عليها نفوسهم. في الرقة يبدو الإحساس. وفي الخشونة تبدو الصورة الحسية التي تعكس ذلك الإحساس. وإذا تجاوزنا العصر الجاهلي إلى ما تلاه من عصور لاحظنا أن الذوق العربي الأصيل بقي محافظاً على ما كان عليه في السابق.

العيون السود الطبيعية هي التي انتشى العربي بلمحاتها، وتكحَّلت عيناه بلحظاتها الساحرة. فوضع لها الشعراء كياناً جمالياً متعدِّد المعاني والصفات، واتخذوه مقياساً للجمال.

أما اللون الأزرق في العيون فكان علامة فارقة للأعجمي ذمَّها الشعراء العرب ووصموها بالقباحة والحسد.

ولكن العيون الزرق أخذت تتكاثر بين مشاهير العرب في العصر العباسي الذي كان الكثير من الخلفاء فيه ينتمون إلى أمهات روميات وتركيات.

شبَّهوا زرقة العين بزرقة عتاق الطير، أو بزرقة حدِّ السيف لا بزرقة السماء لأنَّ جمال غيوم السَماء في الصحراء يطغى على جمال الصفاء والزرقة.

ولذا تحوَّلت كراهية العيون الملونة التي سادت في عصور الجاهلية والإسلام إلى حب وإعجاب وخصوصاً في العصر الحديث الذي أصبح فيه حضور العيون الخضر والزرق واضحاً تزخر به روائع الغزل الحديث.

إنَّ الشاعر القديم كان يصف الأشياء كما تبدو لعينه. ولذلك جاءت صورة شكلية خارجية تعتمد على تسطيع الصور وعدم ربطها بجوهر الرؤية الانفعالية للحياة.

وهي أشبه ما تكون بزخارف الخاتم المحكمة الصنع نعجب بإتقانه ونتأمَّل دقة صياغته.

ولقد تطوَّرت الصورة في الشعر الحديث وانتقلت نقلة واسعة من المباشرة إلى الإيحاء. من المنظور المادي الشكلي إلى جوهر الرؤية الانفعالية العميقة، وإلى الرحلة عبر الداخل، وما تعلَّق بها من تموُّجات نفسية نابضة بالانفعال ورنين اليأس، وألم الروح الرقيقة المتعطشة للنور والنقاء.

لقد جسَّدت الكلاسيكية العربية من خلال شخصيتها الغنائية الواحدة أصلاً والمتجدِّدة شكلياً عبر التاريخ وحدة التراث العربي على الصعيدين الفني والجمالي من جهة. وديمومة الإيقاع الغنائي العربي من جهة أخرى. وتلك أدَّت إلى نسف الحدود الزمانية والمكانية الفاصلة بين شاعر وآخر كامرئ القيس وجميل بثينة وابن زيدون ونزار قباني.

لقد امتدت الكلاسيكية الغنائية العربية لترصد تموُّجات العقل العربي، وأجواءه الجمالية ولم تتلكأ على عتبة الشعر العربي الحديث لتتجمَّد.

لقد كان الغزل في شبكة الصور الحسية للشعر التقليدي الشارة المميزة للتراث العربي. والغزل بالمعنى الحضاري رمز لتجدُّد الحياة وخصوبتها واستمرارها. إنه تفتُّح الذات الإنسانية على ما في داخلها وما حولها في اندفاع للأخذ والعطاء والتفاعل[٢].

...وأخيراً لا بد من الإشارة إلى أنَّ صورة العين أو مجموع الصور لا تشكل وحدها العمل الفني لأنها أجزاء من كلٍّ عام ولا بدّ من ربطها بهذه الأجزاء، أو دراستها في ضوئها.

هذه دراسة انتقائية في رحاب أشعار ملأى بالحياة. كان فيها شعراؤنا العرب مبدعين في ابتكار المعاني وصياغة الألفاظ والتعبير عن المشاعر والأحاسيس وتذوُّق الجمال. ولذا خلَّفوا لأجيالهم وللأجيال اللاحقة تراثاً رائعاً في وصف العيون.

---

(٢) دراسات في الشعر العربي الحديث. أمطانيوس ميخائيل. ص ١٨١.

ومنذ البداية وضعت في حسباني أنه لا بد من الوقوع في أخطاء كثيرة، لقد حزمت أمري مراتٍ عديدة وفي كل مرة كانت تتردَّد خطاي وكنت أشعر أنَّ فصولاً ما زالت بحاجة إلى مزيد من الأناة، وأن بعض المواضيع ما زالت تحتاج إلى كتاب كي تبلغ تكاملها.

ولكن هذا لم يمنعني من متابعة السير على هذه الطريق واضعاً نصب عيني أن أقدّم شيئاً في هذا المجال خير من ألا أقدِّم شيئاً على الإطلاق.

وإني لأرجو أن أكون قد قدَّمت بعض العطاء وهذا حسبي.

لديَّ شعور طاغ بقدسية الكلمة.

لذا نمت الخشية من أن أودع المطبعة ما قد يُضيع على الناس وقتهم، أو ما قد أشعر بعد زمن قليل بخفته، وأندم على إيراده ورحت أؤجل، ولكن إلى متى؟

لقد أدركت أنني لن أكون كاملاً أو قريباً من الكمال. ولكنَّ خطوة جدّية ومتواضعة تجعلني أعزز ثقتي بجدوى ما أقدِّم، وبأن الحياة سيرورة نحو الكمال وليست وصولاً إليه.

هذه جولة واسعة في حدائق الشعر العربي قديمه وحديثه تتبَّعنا فيها ما قاله الشعراء في وصف العيون وأفعالها وتأثيراتها وتعرَّفنا على أساليبهم في التعبير عن الجمال ونظرتهم إليه في مختلف العصور.

وهذه هي صورة العين كما رسمها شعراؤنا على امتداد العصور معبرين عن تجاربهم وانفعالاتهم وإحساساتهم الداخلية. فهل حصل تغيُّر في الذوق العربي عبر هذه الصور استجابة لحاجات جمالية جديدة عندهم، ولَّدتْها أنماط المعيشة، والتغيُّرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها.

لقد اختلف الإنتاج الجمالي بمضمونه وبأبعاده عبر القرون. وربما نجمت المغالطة الكبرى في الأطروحات النظرية الجمالية عن مزج الأزمنة التاريخية المختلفة عند معاينة المنتجات الجمالية.

ومن الملاحظ أنَّ التواصل بين الماضي والحاضر يتراوح ما بين الاستفادة من قيم الماضي الجمالية، وتقديس الماضي لمجرد كونه ماضياً، وإقحامه في الحاضر كمثل أعلى جمالي.

وتبقى الصلة الفنية من الصلات الهامة[1].

وقد ساعد ذلك على احتفاظ اللغة بالكثير من موروثاتها القديمة، وعلى احتفاظ أدب اللغة بالكثير من النماذج الموروثة لكنَّ التطور بقي مستمراً عبر التاريخ شكلاً ومضموناً.

إنَّ المعاني التي تعاقب عليها شعراء العصر الجاهلي في الحديث عن العيون وأوصافها متقاربة تشترك في الصورة الخارجية، حيث اعتمدوا على التشبيه والمقاربة

---

(١) أطروحات جمالية. محمد الجندي. دمشق ١٩٨٥.

وتداولوا ذكر عيون الغزلان والجآذر. وأعربوا عن رقة شعورهم وإحساساتهم بلغة عَذبٍ جرسها، حلوةٍ ألفاظها معتمدين على التشبيه الحسي المستمد من الحياة التي كان يحياها هؤلاء الشعراء الجاهليون ورقة الحياة الداخلية التي كانت تنطوي عليها نفوسهم. في الرقة يبدو الإحساس. وفي الخشونة تبدو الصورة الحسية التي تعكس ذلك الإحساس. وإذا تجاوزنا العصر الجاهلي إلى ما تلاه من عصور لاحظنا أن الذوق العربي الأصيل بقي محافظاً على ما كان عليه في السابق.

العيون السود الطبيعية هي التي انتشى العربي بلمحاتها، وتكحّلت عيناه بلحظاتها الساحرة. فوضع لها الشعراء كياناً جمالياً متعدِّد المعاني والصفات، واتخذوه مقياساً للجمال.

أما اللون الأزرق في العيون فكان علامة فارقة للأعجمي ذمَّها الشعراء العرب ووصموها بالقباحة والحسد.

ولكن العيون الزرق أخذت تتكاثر بين مشاهير العرب في العصر العباسي الذي كان الكثير من الخلفاء فيه ينتمون إلى أمهات روميات وتركيات.

شبَّهوا زرقة العين بزرقة عتاق الطير، أو بزرقة حدِّ السيف لا بزرقة السماء لأنَّ جمال غيوم السَماء في الصحراء يطغى على جمال الصفاء والزرقة.

ولذا تحوَّلت كراهية العيون الملونة التي سادت في عصور الجاهلية والإسلام إلى حب وإعجاب وخصوصاً في العصر الحديث الذي أصبح فيه حضور العيون الخضر والزرق واضحاً تزخر به روائع الغزل الحديث.

إنَّ الشاعر القديم كان يصف الأشياء كما تبدو لعينه. ولذلك جاءت صورة شكلية خارجية تعتمد على تسطيع الصور وعدم ربطها بجوهر الرؤية الانفعالية للحياة.

وهي أشبه ما تكون بزخارف الخاتم المحكمة الصنع نعجب بإتقانه ونتأمَّل دقة صياغته.

ولقد تطوَّرت الصورة في الشعر الحديث وانتقلت نقلة واسعة من المباشرة إلى الإيحاء. من المنظور المادي الشكلي إلى جوهر الرؤية الانفعالية العميقة، وإلى الرحلة عبر الداخل، وما تعلَّق بها من تموُّجات نفسية نابضة بالانفعال ورنين اليأس، وألم الروح الرقيقة المتعطشة للنور والنقاء.

لقد جسَّدت الكلاسيكية العربية من خلال شخصيتها الغنائية الواحدة أصلاً والمتجدِّدة شكلياً عبر التاريخ وحدة التراث العربي على الصعيدين الفني والجمالي من جهة. وديمومة الإيقاع الغنائي العربي من جهة أخرى. وتلك أدَّت إلى نسف الحدود الزمانية والمكانية الفاصلة بين شاعر وآخر كامرئ القيس وجميل بثينة وابن زيدون ونزار قباني.

لقد امتدت الكلاسيكية الغنائية العربية لترصد تموُّجات العقل العربي، وأجواءه الجمالية ولم تتلكأ على عتبة الشعر العربي الحديث لتتجمَّد.

لقد كان الغزل في شبكة الصور الحسية للشعر التقليدي الشارة المميزة للتراث العربي. والغزل بالمعنى الحضاري رمز لتجدُّد الحياة وخصوبتها واستمرارها. إنه تفتُّح الذات الإنسانية على ما في داخلها وما حولها في اندفاع للأخذ والعطاء والتفاعل[٢].

...وأخيراً لا بد من الإشارة إلى أنَّ صورة العين أو مجموع الصور لا تشكل وحدها العمل الفني لأنها أجزاء من كلٍّ عام ولا بدّ من ربطها بهذه الأجزاء، أو دراستها في ضوئها.

هذه دراسة انتقائية في رحاب أشعار ملأى بالحياة. كان فيها شعراؤنا العرب مبدعين في ابتكار المعاني وصياغة الألفاظ والتعبير عن المشاعر والأحاسيس وتذوُّق الجمال. ولذا خلَّفوا لأجيالهم وللأجيال اللاحقة تراثاً رائعاً في وصف العيون.

---

(٢) دراسات في الشعر العربي الحديث. أمطانيوس ميخائيل. ص ١٨١.

ومنذ البداية وضعت في حسباني أنه لا بد من الوقوع في أخطاء كثيرة، لقد حزمت أمري مراتٍ عديدة وفي كل مرة كانت تتردَّد خطاي وكنت أشعر أنَّ فصولاً ما زالت بحاجة إلى مزيد من الأناة، وأن بعض المواضيع ما زالت تحتاج إلى كتاب كي تبلغ تكاملها.

ولكن هذا لم يمنعني من متابعة السير على هذه الطريق واضعاً نصب عيني أن أقدّم شيئاً في هذا المجال خير من ألا أقدِّم شيئاً على الإطلاق.

وإني لأرجو أن أكون قد قدَّمت بعض العطاء وهذا حسبي.

لديَّ شعور طاغ بقدسية الكلمة.

لذا نمت الخشية من أن أودع المطبعة ما قد يُضيع على الناس وقتهم، أو ما قد أشعر بعد زمن قليل بخفته، وأندم على إيراده ورحت أؤجل، ولكن إلى متى؟

لقد أدركت أنني لن أكون كاملاً أو قريباً من الكمال. ولكنَّ خطوة جدّية ومتواضعة تجعلني أعزز ثقتي بجدوى ما أقدِّم، وبأن الحياة سيرورة نحو الكمال وليست وصولاً إليه.

<u>مصادر الدراسة</u>

١) ديوان ابن الفارض ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٢.

٢) ديوان أبي نواس ـ القاهرة ـ ١٩٥٣.

٣) ديوان الأخطل الصغير (الهوى والشباب).

٤) الأصمعيات ـ للأصمعي ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٤.

٥) أطروحات جمالية ـ لمحمد الجندي ـ دمشق ـ ١٩٨٥.

٦) ديوان الأعشى ـ دار الكاتب العربي ـ بيروت ـ ١٩٨٣.

٧) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ـ دار صعب ـ بيروت ـ ١٩٨٧.

٨) ديوان امرئ القيس ـ تحقيق أبو الفضل إبراهيم ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٩) أمالي المرتضى ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

١٠) ديوان البحتري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٨٧.

١١) البعد الجمالي ـ لهربرت ماركوز ـ ترجمة جورج طرابيشي ـ دار الطليعة ـ بيروت ـ ١٩٧٩.

١٢) تحفة العروس ومتعة النفوس ـ تحقيق خليل العطية ـ لندن ـ ١٩٩٢.

١٣) تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث ـ للدكتور نعيم اليافي ـ منشورات اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق.

١٤) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ـ للدكتور شكري فيصل ـ مطبعة جامعة دمشق ـ ١٩٦٤.

١٥) الجامع لأحكام القرآن ـ للقرطبي ـ الدار الإسلامية ـ بيروت ـ ١٩٨٧.

١٦) الجمالية عبر العصور ـ لإتيان سوريو ـ ترجمة ميشال عاصي ـ منشورات عويدات (باريس).

١٧) حب وبطولة ـ لسليمان العيسى ـ مكتبة الشرق بحلب.

١٨) دراسات فنية في الأدب العربي ـ للدكتور عبد الكريم اليافي ـ مطبعة جامعة دمشق ـ ١٩٧٢.

١٩) دراسات في الشعر العربي الحديث ـ لأمطانيوس ميخائيل ـ المكتبة العصرية (بيروت).

٢٠) الديوان الجديد لأمين نخلة.

٢١) ديوان ديك الجن الحمصي ـ مجمع عبد المعين الملوحي ـ مطابع الفجر بحمص ـ ١٩٦٠.

٢٢) زهرة الآداب وثمرة الألباب ـ لأبي إسحاق القيرواني ـ القاهرة ـ ١٩٥٣.

٢٣) السيرة الذاتية ـ لخليل الهنداوي.

٢٤) ديوان الشعر العربي ـ لأدونيس ـ المكتبة العصرية ـ بيروت ـ ١٩٦٤.

٢٥) شاعر وقصيدة (مختارات شعرية) ـ لمصطفى طلاس ـ دار طلاس.

٢٦) الشعر والشعراء ـ لابن قتيبة ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٨١.

٢٧) شعر الهذليين ـ للدكتور أحمد زكي ـ دار الكاتب العربي ١٩٦٩.

٢٨) شرح اختيارات المفضل ـ للخطيب التبريزي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٨٧.

٢٩) الشوقيات ـ دار العودة ـ بيروت.

٣٠) طوق الحمامة ـ ابن حزم الأندلسي .

٣١) طفولة نهد ـ نزار قباني.

٣٢) العقد الفريد ـ ابن عبد ربه الأندلسي ـ دار الفكر.

٣٣) علم الجمال (الاستطيقا) ـ دينس هويسمان.

٣٤) علم الجمال ـ محمد نظمي مسالمه ـ دار الفكر الجامعي.

٣٥) ديوان عمر بن أبي ربيعة.

٣٦) العين في الشعر العربي ـ الدكتور علي شلق.

٣٧) فقه اللغة وسر العربية ـ لأبي منصور الثعالبي.

٣٨) فكرة الجمال ـ هيغل.... ترجمة جورج طرابيشي ـ دار الطليعة ـ بيروت.

٣٩) فن المنتجب العاني ـ الدكتور أسعد علي.

٤٠) في الأدب الأندلسي للدكتور جودت الركابي ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٦.

٤١) في أدب وطب العيون للدكتور عبد الرحمن البابا.

٤٢) في النقد الجمالي ـ للدكتور أحمد محمود خليل ـ دار الفكر، دمشق.

٤٣) الكشكول ـ لبهاء الدين العاملي.

٤٤) لسان العرب ـ لابن منظور ـ دار صادر ـ بيروت.

٤٥) المأدبة ـ لأفلاطون ـ باريس ١٩٦٤.

٤٦) شرح ديوان المتنبي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٨٧.

٤٧) شرح ديوان مسلم بن الوليد ـ تحقيق سامي الدهان ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٧٠.

٤٨) مجاني الأدب ـ للأب لويس شيخو اليسوعي.

٤٩) مجمع البيان ـ للطبرسي.

٥٠) المجموعة الكاملة لؤلفات جبران خليل جبران ـ دار صادر ـ بيروت.

٥١) محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني ـ دار الجيل ـ بيروت.

٥٢) مدخل إلى فنون الجميل ـ لجيلسون ـ باريس ـ ١٩٦٣.

٥٣) مسألة الحجاب ـ لمرتضى المطهري ـ الدار الإسلامية ـ بيروت ـ ١٩٨٣.

٥٤) المستطرف في كل فن مستظرف ـ الأبشيهي ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ١٩٩٢.

٥٥) مسرح الجمال والحب والفن ـ للدكتور أسعد علي.

٥٦) مفاهيم علم الجمال ـ شارل لالو ـ باريس ـ ١٩٥٢.

٥٧) ديوان النابغة الذبياني ـ تحقيق د. شكري فيصل ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٦٨.

٥٨) ناجي شاعر الوجدان الذاتي ـ لأحمد المعتصم بالله.

٥٩) النقد الأدبي (أصوله ومناهجه) لسيد قطب ـ دار الفكر العربي ـ ١٩٥٢.

٦٠) النقد الجمالي ـ لأندريه ريشار ـ منشورات عويدات ـ بيروت.

٦١) النقد الفني ـ لجيروم ستولينتز ـ ترجمة الدكتور فؤاد زكريا (المؤسسة العربية للدراسات والنشر).

٦٢) نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب ـ لأحمد التيفاشي ـ الريّس للكتب والنشر ـ لندن ـ ١٩٩٢.

٦٣) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ـ لأبي منصور الثعالبي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

المجلات:

ـ مجلة اللوتس ـ الأعداد: ٦٥-٦٦.

ـ مجلة القيثارة ـ العدد: ١٢.

ـ مجلة الموقف الأدبي ـ العدد ٨٥٧ لعام ١٩٧٥.

الفهرس

الفهرس